أوراق إستراتيجية

حفظ لبنان من تهديد الجهادية السلفية

بقلم بلال صعب (مركز صبان لسياسة الشرق الأوسط، معهد بروكينغز، واشنطن، الولايات المتّحدة)، وماغنوس رانستروب (مركز دراسات التهديد اللامتوازن، كلية الدفاع الوطني، ستوكهولم، السويد / متابع وباحث في شؤون حزب الله).

* *يشكر المؤلفان دانييل بايمن، مارتن غيبهاردت، فداء عيتاني، بروس هوفمان، كارلوس باسكال، بروس ريدل (ضابط سي آي إي سابق)، وإثنين من المراجعين المجهولين لمعلوماتهم الحيوية وتعليقاتهم حول هذا الموضوع.*

– تسعى هذه المقالة الى درس تاريخ وديناميكية الجهادية السلفية في لبنان، شرح اسبابها، البحث في تأثيرها على الأمن المحلي اللبناني وإستكشاف مسارها المستقبلي. كما تضع المقالة أمامنا سلسلة من الوصفات السياسية التي يمكنها أن تساعد الدولة اللبنانية على تخفيض تهديد الجهادية السلفية المحلية بفعالية، والتخلص منها في النهاية.

يُقصد من المقالة تقديم تقييم مستقل ومعمق لتهديد الجهادية السلفية، المتأثرة بالقاعدة، لأمن لبنان الحاضر والمستقبلي. فالنقاش الهادئ والمتبصر حول موضوع القاعدة في لبنان يُعتبر أمراً ضرورياً ومتأخراً جداً. فنقاش كهذا كان، ولسوء الحظ، مربكاً إن لم يكن مُتجنباً عن قصد في الحقل العام اللبناني، ويعود ذلك جزئياً الى ميل النخب المحلية الحالية لمعالجة خطر التطرف الديني السني في بلادهم بشكل عادي وعدم إكتراث وبالتقليل منه، غالباً، لأسباب سياسية مختلفة.

وفي محاولة للتنقيب في تاريخ الجهادية السلفية، سماتها وأسبابها، يرغب المؤلفان بإرساء أرضية جديدة وصنع قضية تقول بأنّ الجهادية في لبنان ليست ظاهرة فلسطينية حصرياً، وبأنّ إمتدادها العالمي ليس محصوراً بمخيمات اللاجئين الفلسطينيين.بالإضافة الى ذلك، تحتج المقالة بالقول بأنّ الحركة الجهادية السلفية ليست مخلوقاً إبتداعياً ولا آلياً لسوريا. وبذلك، يضع المؤلفان أمامنا معلومات إختبارية كافية لإثبات أنّ الحركة الجهادية السلفية كانت قادرة بالفعل، على مدى الخمس سنوات الماضية، على جذب عدد أكبر من الأتباع اللبنانيين. بمعنى آخر، تحاول المقالة الإثبات بأنّ القاعدة في لبنان لديها مجموعة حقيقية ومتأصلة من المؤيدين والأنصار. بالواقع، إن "لبننة" كهذه للحركة الجهادية السلفية قد تسارعت بالفعل وأخذت تحولاً أكثر خطورة عقب حرب العراق في العام 2003.

ولإحداث بعض الإختراق في ضباب علم الألفاظ والدلالات ذات المعنى الدقيق المحيطة بمفهوم الإرهاب الإسلامي، تبدأ المقالة بتقديم تعريفات عملية مناسبة وواضحة للسلفية والجهادية السلفية، وهما مصطلحان مختلفان جداً غالباً ما أديا الى إرباك خاطئ والى إستخدامهما بشكل قابل للتبادل في النقاش العام وأدب الإرهاب. ومن ثم تفسر المقالة أسباب الجهادية السلفية المرتبطة بالقاعدة في لبنان، وتصف

ديناميكيتها، وتفرغ ما تحويه الكيانات المتعددة الأشكال المرتبطة، والتي يمكن أن تكون مرتبطة، مع القاعدة عبر الفئات المتعددة الموجودة في مناطق لبنان المختلفة، وتقيم التهديد الذي تشكله على لبنان.

ثانياً، تحلل المقالة بحذر وإهتمام الدور الذي قد تكون سوريا تلعبه في كبح إنتشار القاعدة في لبنان، موضحة الإمكانيات والحدود لدور كهذا. أخيراً، تضع المقالة أمامنا سلسلة من الوصفات السياسية المقصود بها مساعدة الدولة اللبنانية على تخفيض مستوى تهديد الجهادية السلفية المحلية، ومن ثم التخلص منها في النهاية.

السلفية والجهادية السلفية: تعريفات عملية مناسبة

كان التعريف العملي المناسب للسلفية، في الجدل السياسي العالمي في مكافحة الإرهاب، صعب التعريف ومحيراً نوعاً ما. وبالنتيجة، كان عدد من الأكاديميين الغربيين والعرب ومسؤولي الحكومات ميالين الى إرتكاب خطأ مساواة السلفية مع الإرهاب والعنف الديني.

فالسلفيون مسلمون سنة يؤمنون بأن تقليد سلوك الصحابة الأقرب للنبي محمد- الذي يعتبر بالنسبة للسلفيين الصيغة الأنقى للإسلام- يجب أن يكون أساس النظام الإجتماعي. ويعتقد السلفيون بأنه بسبب تعلم السلف (الأصحاب الفاضلين الأُول للنبي) الإسلام مباشرة من النبي أو من الذين عرفوه، فإنهم مارسوا فهماً متنوراً و صافياً للدين. ويرفض السلفيون دعوات غير مبررة للإصلاح الإسلامي الذي تم إحداثه في الدين في سنوات لاحقة والتي إنتهت بحسب رؤيتهم الى تفسير محرف لطريقة الإسلام السوية وللإنقسامات غير الطبيعية داخل المجتمع الإسلامي.

إنّ السلفية، بذاتها، ليست مرادفة للإرهاب ولا للقتالية. كما تأتي بأشكال ودرجات مختلفة من التشدد أو القتالية. وبالرغم أن من الواضح بأنّ السلفيين صارمون عقائدياً ويتبنون وجهة نظر فلسفية ثنوية للعالم (فلسفة تقسم العالم الى خير وشر، وتعتبر المادة شراً والعقل خيراً)، فإنهم ينكرون، والى حد كبير، العنف كوسيلة للحصول على أهدافهم. ولا يعني ذلك بأنهم يرفضون سل السيف، وإنما يعني بأنّ السلفيين يحتجون بالقول بأنّ الضرورة الأولوية هي في نشر الإسلام من خلال الدعوة لتحقيق الشروط المجتمعية الصحيحة لتأسيس دولة إسلامية. وكما كان كوينتان ويكتورويتز قد أشار، فإنّ هناك فرقاً هاماً بين ما يدعى بالسلفيين الإصلاحيين، الذين يعتقدون بالتحول الشخصي والمجتمعي من خلال التعليم ونشر الدعوة على نطاق واسع، وبين السلفيين (الجهاديين) مثل القاعدة، الذين يشددون على الضرورة الحتمية للعنف.

فالسلفيون الجهاديون (المدعوون أيضاً بالسلفيين الجدد) هم شريحة مؤلفة من أقلية صغيرة موجودة في الفكر السلفي. وبصفتهم مسلمين سنة محاربين ، فإنّ هذه الشريحة من الأتباع تعتقد بأنّ الإستراتيجيات السلمية للإنبعاث الإسلامي- الدعوة والإصلاحات السياسية- غير قابلة للحياة، وبأنّ العنف والجهاد الهجومي فقط هو ما سيؤدي الى تأسيس دولة إسلامية. فالمجاهدون السلفيون متأثرون بكتابات طارق الدين إبن تيمية (بالرغم أنهم يسيئون فهم معناها الحقيقي ويحرفونها)، ويتبعون أو يتعاطفون مع رؤية أسامة بن لادن في سعيه لتأسيس خلافة إسلامية وواجب طرد الغربيين وغير المسلمين من البلدان الإسلامية. وقد عاش إبن تيمية (1263-1328) في إحدى أشد فترات التاريخ الإسلامي إضطراباً- إحتلال الأراضي الإسلامية من قِبَل المغول، الذين تحولوا لاحقاً الى الإسلام. فتفسيره للجهاد الذي لا يزال يثير الجدل والتأويلات المختلفة، يحاجج بالقول بأنه حتى لو كان النظام يمارس شعائر دينية إسلامية، فإنّ الفشل بحفظ القانون الإسلامي يحدده كنظام غير مؤمن وعرضة للمقاومة.

على كل حال، لم يؤيد إبن تيمية، صراحةً، الإطاحة بالحكام المسلمين، كما أنه لم يجادل بخصوص حتمية العنف كوسيلة لحفظ الإسلام.أما حقيقة الأمر، فهي أنه لم يصدر في كل حياته سوى فتويَيْن فقط- واحدة ضد بقايا الصليبيين وواحدة ضد المغول، الذين إستمروا بإتباع نظم

قوانين الـ "ياسا" المدونة لجنكيز خان بدلاً من الشريعة. لكن إبن تيمية قدم، وبطرق عديدة، النموذج التاريخي المحتذى به لتوجيه المجتمع الإسلامي الخاضع لسيطرة، أو ظل، قوة وسلطة غير إسلامية. وبذلك، وبرغم إفتقار هذا النموذج للتجانس، فإنه يمثل إيديولوجية أو تقليداً للمقاومة ضد النفوذ غير الإسلامي.

وكقاعدة بن لادن، ظهر الجهاديون السلفيون كنتاج للحرب ضد الإحتلال السوفياتي لأفغانستان ما بين عامَيْ 1979–1989، وليست مصادفة أن يكون عدد من قادهم من الجنود الأفغان المحنكين. أما بالنسبة لبن لادن، فليس هناك واجب أهم من دفع العدو الأميركي خارج الأرض المقدسة، وذلك إستشهاداً بكلام لإبن تيمية الذي قال، "بالنسبة للقتال دفاعاً عن الدين والإيمان، هذا واجب مشترك؛ ليس هناك واجب بعد الإيمان عدا محاربة العدو الذي يفسد الحياة والدين". وأصبحت فتوى بن لادن لـ "الجبهة الإسلامية العالمية"، التي تصرح بـ "الجهاد ضد اليهود والصليبيين"، دلالة على الحركة الجهادية السلفية العالمية الجديدة بالكامل. ففي هذه الوثيقة، يكون بن لادن قد وسّع مفهومه السابق عن الجهاد من مفهوم دفاعي الى هجومي.

وبالرغم من إرتباطهم بمشهد التمرد الإسلامي العالمي الأكبر، لا يزال الجهاديون السلفيون يستعرضون خصوصيات الإختلافات والسياقات المحلية، كما برهن تطورهم ونموهم داخل لبنان. فحوالي ثلثي الإرهابيين الذين يشكلون قيادة القاعدة، بحسب وثائق لـ مارك سايغمان، يأتون من مصر. أما الباقين، فهم من العربية السعودية، الكويت، الأردن، العراق، السودان، ليبيا ومن لبنان الموضوع الخاضع لهذه الدراسة.

السلفية والجهادية السلفية في لبنان: نظرة شاملة

* التاريخ والأسباب

تقدم نظرية الصراع الإجتماعي إضاءات مفيدة على السبب الذي يدعو الأفراد، عموماً، للإرتباط بالإرهاب أو النشاط المسلح. إذ تعرض نظرية كهذه الى القول بأن الإرهاب لديه هدف بناء مثل العمل كمحفز لإحداث تغيير إجتماعي ضروري وإيجابي، أو تشكيل قناة يتم التعبير من خلالها عن عدم المساواة السياسي، الإجتماعي والإقتصادي والتخفيف منه. وتعرض تعقيدات هذه المقاربة بما يتعلق بجذور الإرهاب الى أنّ أسباب العنف يمكن تحديدها بالظلم السياسي، الإجتماعي والإقتصادي.

أما جذور الجهادية السلفية في لبنان، فمعقدة بشكل هائل ويمكن البحث فيها من خلال منظور لخليط قوي يعمل على ثلاث مستويات: المحلي، النظامي المنهجي والفردي. فعلى المستوى المحلي، يمكن الرجوع بظهور الإيديولوجية الإسلامية الراديكالية والقتالية الى القصور والعجز التاريخي للنظام الإجتماعي– السياسي اللبناني. إنّ التحليل المفصل للشذوذ والإنحرافات التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من نظام الحكم اللبناني يتخطى مجال هذه المقالة، ويمكن العثور عليه في كتابات أخرى أكثر تركيزاً على هذا الموضوع. بإختصار، عندما حقق لبنان إستقلاله عن فرنسا في العام 1943، إبتدعت إثنان من النخب السياسية اللبنانية الشعبية "الميثاق الوطني". وتعهد الميثاق الوطني، الإتفاق الشفهي المصاغ بعناية، بأنّ يتخلى مسيحيو لبنان عن الحماية الأوروبيةوكل المعاهدات العسكرية مع القوى الغربية، بينما وافق المسلمون على وضع أية أهداف وغايات عربية جانباً والقبول بحدود لبنان الجغرافية الموجودة. بالإضافة الى ذلك، فقد أدخل صناع الميثاق النزاع الطائفي الى داخل النظام السياسي عندما أعادوا التأكيد على أنّ يكون رؤساء لبنان في المستقبل من المسيحيين الموارنة، ورؤساء الوزراء من المسلمين السنة ورؤساء المجلس النيابي من المسلمين الشيعة. كما نصوا على أن تكون تعيينات الخدمة المدنية وتمويل القرارات على أساس طائفي. أما الميثاق الوطني اللبناني المكمل لدستور 1926، فقد وُضع من قِبَل الفرنسيين بالتواصل مع قضاة لبنانيين. وكان من بين أهم بنود الدستو أن تكون المجموعات الطائفية في لبنان ممثلة بشكل حصصي في البرلمان. وقبل العام 1975، كانت إتفاقيات تقاسم السلطة في لبنان ممدوحة من

قِبَل كثيرين بسبب قدرتها على حفظ ديمقراطية محدودة والمحافظة على النظام المدني في مجتمع حديث منقسم بعمق وموجود في منطقة متسمة بالإضطراب. وأدرك آخرون، على كل حال، وبشكل صحيح، الطرح الضعيف الذي تم عليه بناء الإجماع السياسي للنظام. ولم تكن الحرب الأهلية اللبنانية المقتضبة في العام **1958** إلا إحدى المؤشرات على الهشاشة المتأصلة للنظام. ولاحظ دارسو الشؤون السياسة اللبنانية، بمن فيهم مايكل هادسون، بأنّ التحديث وقوته المصاحبة له، التحرك الإجتماعي، كانا المؤشران الأهم لعدم الإستقرار بما يتعلق بكمية المشاكل الكبيرة التي تخلقها للأنظمة الديمقراطية. أما الأمر الأكثر لفتاً للإهتمام، فهو أنّ هذه العمليات قد أدت الى زيادة أعباء عمليات صنع القرار على كاهل النظام اللبناني وساهمت بعدم المساواة في التطور المحلي داخل لبنان، في نفس الوقت الذي أثبتت فيه النخب عجزها عن دمج العدد المتزايد لأحزاب وجماعات مصالح غير تقليدية داخل النظام بسبب مخاوفهم من أن يؤدي ذلك الى دولة إسلامية أكثر راديكالية. وبالرغم من النوعية المتفق عليها لأتفاقيات تقاسم السلطة هذه، فقد أثبتت أحداث **1975** بأنها مرعبة جداً للنظام وللإئتلاف الحاكم.

وقد نُسِبَ إنهيار النظام الى مروحة من العوامل الداخلية، بما في ذلك التحول الديمغرافي الذي كان، وبشكل متزايد، لصالح المسلمين على حساب المسيحيين؛ الصدع الطائفي الذي منح وضعاً مهيمناً للموارنة على حساب المسلمين؛ نهوض نخبة من المفكرين الراديكاليين داخل المجتمع الداعمين للتغيير الإجتماعي- السياسي وللخط العروبي؛ وعجز النخب اللبنانية عن التعامل بفاعلية مع التطور الإقليمي والإختلافات والفروقات الإجتماعية- الإقتصادية التي أدت عموماً الى حرمان المسلمين، رغم أن ذلك لم يكن محصوراً بهم (مع الإشارة الى أنّ التطرف والإيديولوجية القتالية في لبنان قد نمت، والى حد كبير، في مناطق هي الأكثر حرماناً إجتماعياً). وإتحدت الظروف الإقتصادية المناوئة مع القلق والإضطراب الإجتماعي المتنامي ليُضاف ذلك الى قلة الإهتمام بالمناطق الأفقر في شمال وجنوب لبنان. فإتفاقية الطائف عام **1989**، التي أنهت الحرب الأهلية، نظمت عدداً من بنود الميثاق الوطني، وبذلك فسرت مبادئ التوزيع الطائفي للسلطة. وبدلاً من إلغاء الطائفية، أعاد إتفاق الطائف التأكيد على وجوب تخصيص كل المراكز في بيروقراطية الدولة وفق الحصص الطائفية. أضف الى ذلك عجز وتقصير النظام الإنتخابي اللبناني، الذي يؤثر سلباً على النظام السياسي ويجعله غير عادل بصلبه. وهناك عيبان رئيسيان في النظام الإنتخابي هما نظام القائمة الإنتخابية وطريقة إنشاء المحافظات التشريعية. فنظام القائمة مبني على معلومات خاطئة، وبالنتيجة هو لا يعكس الواقع الديمغرافي اللبناني الحالي، وبذلك يفاقم من المشكلة الطائفية. وقدم الإنسحاب العسكري السوري إمكانية عظيمة للقيام بإصلاح لبناني. ومع ذلك، وفي الوقت الذي كان فيه آخر جندي سوري يترك البلاد، تبدد، وبسرعة، زخم التغيير وعادت الإنقسامات القديمة في الحياة السياسية والإجتماعية اللبنانية الى الظهور مجدداً على السطح. وبالرغم من توحده الطويل لأجل الحرية والسيادة عقب إغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري، لا يزال لبنان بلداً مربكاً يفتقر نظامه السياسي للتعريف الرسمي، كما أن مجتمعه منقسم وإستقطابي، بالإضافة الى أن سياسيه المطلعين، ظاهرياً، لا يزالون مترسخين، وبعناد، بالحقبة الإقطاعية، والذي تعتبر أكبر مشاكله ناشئة ليس من الأعداء الخارجيين وإنما من عدم التوازن البنيوي الدائم والمستمر.

وقد أكدت الإنتخابات البرلمانية الحرة نسبياً في حزيران عام **2005** والأزمة السياسية الناجمة عنها، مرة أخرى، على أنّ السياسات الطائفية كانت موجودة في أصل العملية السياسية في لبنان. فالتغيير في لبنان، كما أشار أحد علماء السياسة اللبنانيين بذكاء، كان يحدث (ولا يزال) في سياق الإستمرارية المؤسساتية والدستورية.

أما بالنسة للإسلاميين الراديكاليين اللبنانيين، تحديداً، فإنّ البنية المتعددة للحكم اللبناني كانت دوماً مصدر إحباط وعائقاً أمام تصوراتهم وأهدافهم وطموحاتهم الإسلامية القصوى. فالنظام التعددي اللبناني ينكر أية جهود من قِبَل أية مجموعة لتنفيذ سياسات ذات تمثيل وطني مفروض من قِبَل الدولة تكون ضمن خط طموحاتها ووجهة نظرها المجتمعية والإيديولوجية. فمسألة فرض الشريعة (القانون الإسلامي) في لبنان كان وسيظل دوماً مهمة مستحيلة لأنّ ليس هناك من مجموعة طائفية قادرة على فرض حكمها من دون تعريض مجهود كهذا لخطر معارضة قوية، أو من دون المعاناة من إرتدادات كبرى. بمعنى آخر، ليس هناك من مجموعة طائفية كبيرة وقوية كفاية قادرة على إحتكار

السلطة، وليس هناك من مجموعة صغيرة كفاية– ولكن مهيمنة في المواقع الحكومية الأساسية و/أو الجيش– لفرض حكم أقلية، تحريك موارد الدولة، والتخلص من المعارضة لضمان الخضوع الكامل لسلطة الحكومة. وكان حزب الله في الثمانينات مجبراً على تعديل طموحاته الثورية والإسلامية/الشيعية– تأسيس حكم إسلامي في لبناني على أساس ولاية الفقيه، عقيدة القائد الأعلى الإيراني آية الله روح الله الخميني– بعدما تفهم الموقف مع وقائع لبنان العلماني والمتعدد الطوائف. فالتاريخ والجغرافيا في لبنان قدما آليات داخلية لتحييد الهيمنة الطائفية في المجتمع اللبناني، لأنه لم تكن هناك من مجموعة، ولن تكون، قادرة على الإستمرار في السلطة مدة كافية لشرعنة سلطة مجتمعية حقيقية.

وفي هذه الأثناء، كان من الواجب على أي فهم واضح وشفاف لجذور وأسباب القتالية الإسلامية في لبنان أن يتضمن تفسيراً للكيفية التي أثرت بها البيئة الخارجية المهيمنة على نهوضها ونموها. بإختصار، إنّ ظهور القتالية الإسلامية في الشرق الأوسط كان مترافقاً، وبشكل ليس تصادفياً، مع أزمة هوية عامة في المجتمع الإسلامي– العربي ومع الشعور المشترك بالإذلال والخضوع نتيجةً للهزائم العسكرية العربية المتلاحقة للعرب أمام إسرائيل. أما في لبنان، فقد تعززت ظروف أزمة كهذه بسبب 15 عاماً من الحرب الأهلية (1975–1990)، التي يعود السبب الأكبر فيها الى معارضة اليمين المسيحي لليسار الإسلامي، والأكثر وضوحاً بسبب الغزو الإسرائيلي والإحتلال الذي أعقبه لمدة للجزء الجنوبي من البلاد لمدة 18 عاماً (1982–2000). أما اليوم، فلا تزال الحالة القتالية الإسلامية في لبنان متأثرة بشدة بالمحيط الإقليمي العنيف الذي يحتشد فيه الصراع الإسرائيلي– الفلسطيني والحرب الطائفية الدموية في العراق التي تقحم المسلمين السنة والشيعة فيها.

أما لجهة البحث والتدقيق بالكيفية التي أخذت فيها القتالية الإسلامية اللبنانية تحولاً على مدى الــ 50 سنة الماضية، فإنّ ذلك يتطلب درساً كاملاً وشاملاً للدور الفعال والنشيط الذي لعبه القادة الجهاديون السلفيون المحليون والأجانب في مساعدة الإيديولوجية الجهادية السلفية على الإزدهار عن طريق إختراق المجتمع الإسلامي اللبناني (الأكثر تحديداً المجتمع السلفي غير العنيف). فمورد التجنيد بالنسبة للجهادية السلفية الحالية في لبنان، بالرغم أنها، وبوضوح، ليست محدودة بالمجتمع السلفي المحلي، يمتد من المؤمنين السلفيين الذين "إنحرفوا" بسبب خضوعهم لعملية إقناع شاملة ليصبحوا في النهاية مقاتلين، الى المجرمين العاديين، الخارجين عن القانون، والأفراد المنحازين بحدة الذين يواجهون أزمة هوية والذين ليس لديهم علاقة كبيرة بالفكر الإسلامي.

وللإستفسار عن دور كهذا لــ "متعهدي" الجهادية السلفية، فإنّ إجراء مسح لتاريخ السلفية والجهادية السلفية في لبنان يعتبر أمراً مناسباً. فالسلفية (والجهادية السلفية التي لم تكن صدفة) قد ظهرت وتطورت بشكل رئيس في طرابلس، العرقوب، مجدل عنجر، قارون وصيدا.

* طرابلس

في لبنان، من المفهوم بشكل شائع بأنّ طرابلس كانت المدينة الأولى في تقديم الإيديولوجية السلفية الى البلد. فالسلفيون في طرابلس، بحسب ما يقول الشيخ خالد، وهو شيخ سني لبناني عمره 72 عاماً، نمت نتيجة ظروف الحياة البائسة التي تراكمت على مدى السنوات، ونتيجة إنتشار المنتسبين إليها الفعال وسط "الشارع السني". "فبالنسبة لشعب طرابلس"، أكد الشيخ خالد قائلاً: "بدا الإسلام (أو تفسير محدد له) الجواب على مشاكلهم". أما بالنسبة للـــ 50 عاماً الماضية، فقد كانت ثاني أكبر مدينة لبنانية تشهد إنحداراً سريعاً وحاداً في ثروتها الرومانية، العثمانية، والإسلامية القديمة. "فجوهرة الشرق" السابقة كما كان اللبنانيون والعرب يدعونها، هي الآن مرتبطة بشكل مخزٍ ومخجل بالإنحدار الإقتصادي، هبوط النشاط الصناعي والتجاري، إرتفاع نسبة البطالة، الإفتقار الى مشاريع التطوير وإمتداد رقعة الفقر.

وغالباً ما شعرت مجتمعات طرابلس بالتجاهل سياسياً وإقتصادياً، حتى خلال فترات جاء فيها رؤساء حكومات لبنان من هذه المدينة. وكالجنوب، كانت طرابلس تعاني من إهمال بيروت الكامل لها ومن سياسات التطوير الإقتصادي غير المنصفة. فالحياة السياسية في طرابلس

هي في مستواها الأدنى، ومحصورة فقط ببعض الأنشطة الجارية في بيوت الوزراء أو أعضاء البرلمان في عطل نهاية الأسبوع. فهناك حضور ضئيل للأحزاب السياسية، الرابطات المهنية، والإتحادات التجارية. وبالنتيجة، تميل المساجد لأن تكون المؤسسات الأكثر نشاطاً وتعبيراً في المدينة. ففي ساحات طرابلس، وتحديداً أحياءها المجاورة الأكثر تديناً مثل ابو سمرا، فإن الفن الوطني، غالباً، ليس إلا تمثيلاً حاداً لإسم الله. أما على الشرفات، فالأعلام السوداء ذات الكتابات الدينية المطبوعة مرتبطة بالحرب المقدسة عادة. إنّ أي شخص يعرف المدينة أو عاش فيها سيلاحظ بسهولة التحول الحاصل في العادات والأخلاق الإجتماعية على مدى السنوات القليلة الماضية: إنتشار حجاب النساء ولحى الرجال، إزدهار الصفوف الدينية وعدد الشباب المنضمين لصفوف كهذه.

ويعتبر باب التبانة معقل السلفيين الأكبر في طرابلس، ويصدف أن يكون الحي الأفقر والأكثر إحباطاً في المدينة. فعدد من أبنية الشقق الخراسانية المتهدمة لباب التبانة تحمل علامات الحرب الأهلية. فجدرانها مثقوبة بعدد لا يحصى من قذائف المدفعية والمورتر. وفي كانون الأول من عام 1986، قتل رجال الميليشيات اليساريين اللبنانيين، بعد أوامر نظام سوري علماني قلق من النفوذ المتنامي للإسلاميين في طرابلس، معظم رجال الحي أمام عائلاتهم– وأحياناً معهم. وقد تم العثور بعد ذلك على نساء وأطفال باب التبانة مقتولين برصاص في الرأس. وذكرت منظمة العفو الدولية في تقرير لها بأنّ مجزرة بحق 200 شخص قد تمت في باب التبانة. أما اللبنانيون، فقد لقبوها بـ "صبرا وشاتيلا الشمال"، نسبةً للمجزرة التي إرتكبها الكتائبيون المسيحيون اللبنانيون بالتنسيق مع القوات الإسرائيلية ضد المدنيين الفلسطينيين في مخيم صبرا وشاتيلا للاجئين.

إنّ الواقع الديمغرافي لباب التبانة يعكس الإنحدار التطوري والثقافي الحاد والسريع لطرابلس: إذ أن نسبة الأمية لدى ذكور وإناث باب التبانة، على التوالي، هي 27 بالمئة و37 بالمئة. فـ 3 بالمئة فقط من سكانها الذكور و6 بالمئة من الإناث هم طلاب مسجلون في الكليات؛ وأكثر من 27 بالمئة من العائلات المؤلفة من أكثر من 7 أشخاص في باب التبانة تعيش بمداخيل أقل من 200 دولار شهرياً، كما يملك الحي أعلى نسبة وفيات أطفال في الشمال. وفي محاولة لسد الثغرة التي تركتها الدولة اللبنانية على مدى السنوات، عمل السلفيون في الشمال على توفير فرص التوظيف والخدمات الإجتماعية لمجتمع المدينة ذي الأغلبية السنية. ومع المنح والتبرعات من قِبَل أفراد محليين، المقترنة مع المحرك المالي للمنظمات الخيرية التابعة للعربية السعودية، تمكن السلفيون من خلق مجالهم العام الخاص بهم ونطاق نفوذهم عن طريق بناء المساجد والمعاهد الدينية.

إنّ طرابلس موطن لحركتين إسلاميتين مؤسستان بشكل جيد، واللتان تمتعتا بعلاقات وثيقة مع المجتمع السلفي في لبنان، وهما حركة التوحيد الإسلامي والجماعة الإسلامية.

بعد إنشائها بين عامي 1979–1980، عقب الثورة الإسلامية في إيران، وتفعيلها في العام 1982 بعد الغزو الإسرائيلي للبنان مباشرة، عملت حركة التوحيد كإمتداد مؤسساتي وعسكري للشيخ سعيد شعبان، الذي كان ذات مرة أحد أشد القادة الإسلاميين السنة سحراً في لبنان (وعضو سابق أيضاً في الجماعة الإسلامية). فإيديولوجية سعيد شعبان إنبثقت من إيديولوجية الشريعة، التي بدونها لا يمكن لأية حكومة أن تكون شرعية. وفي عامَيْ 1983–1984، أحكم مقاتلو شعبان، المتحالفين مع رجال ميليشيا فتح، سيطرتهم على طرابلس بإلحاق الهزيمة بعدد من خصومهم الإسلاميين المحليين. إلا أنّ حركته، على كل حال، إنشقت في ذروة قوتها في العام 1985 عندما إنسحب خليل عكاوي وكنعان ناجي، رسمياً، من المنظمة لتنظيم فئتهم المسلحة الخاصة بهم، والتي دعوها جند الله. ولوقف إنتشار الجهادية الإسلامية في لبنان (وتحديداً في الشمال)، دخل الجيش السوري طرابلس في خريف 1985 وسحق ميليشيا حركة التوحيد الإسلامي، رغم أنه سمح للشيخ شعبان بالإحتفاظ بقيادة حركته. هذه الهزيمة لم تمنع عودة الظهور اللاحقة للميليشيا في بيروت، صيدا ومناطق أخرى في الجنوب اللبناني. وفي العام 1988، ضم محاربون فارون من الميليشيا قواهم الى قوى حزب الله لمحاربة جيش لبنان الجنوبي والقوات الإسرائيلية في المنطقة التي أعلنتها إسرائيل "منطقتها الأمنية" في الجنوب.

أما الجماعة الإسلامية، فهي مجموعة إسلامية سنية أصولية تأسست في العام 1964 من قِبَل أعضاء شبان في "عباد الرحمن". أما أصولها، كما وثّق ذلك نزار حمزة، فترجع الى ذروة جهود جمال عبد الناصر لتحقيق الوحدة العربية في منتصف الستينات. وتؤمن الجماعة الإسلامية بتحقيق النظام الإسلامي في لبنان المبني على أساس قانون الشريعة وكفرع محلي يتبع عقائد الإخوان المسلمين. أما فتحي يكن، الذي يُنسب إليه خطأً تأسيس الجماعة الإسلامية، فهو على كل حال بمثابة الجد للجماعة والإيديولوجي الرئيسي فيها. ففتحي يكن باحث إسلامي محنك وداعية إسلامي من طرابلس يبلغ من العمر 73 عاماً؛ إنه شخصية إسلامية ساحرة ومؤثرة في لبنان والمنطقة. وكونه تلميذاً تابعاً للمفكر الإسلامي المصري الراديكالي سيد قطب، ومؤمناً بكتابات روسو، فولتير، ماركس- أنجلز الثورية، ومعجباً بالتعاليم الفلسفية لأسامة بن لادن وأيمن الظواهري (رغم أنه يختلف معهما بإستراتيجيتهما العسكرية)، فإنه يعارض الإيديولوجية العلمانية والشيوعية ويعتبر الإسلام هو الأساس في النظام الإجتماعي- السياسي.

وكان يكن قد إنضم، في بداية الحرب العربية- الإسرائيلية عام 1967، الى سعيد الحوا، أحد أعضاء الإخوان المسلمين في سوريا لتأييد الجهاد ضد الغرب وإسرائيل. وكان يكن قد تولى، الى جانب القاضي والزميل فيصل المولوي، قيادة الجماعة الإسلامية خلال الحرب الأهلية وحارب الى جانب الإئتلاف اليساري- الإسلامي في طرابلس. وفي العام 1992 إنفصل عن قيادة الجماعة الإسلامية بسبب خلافات عقائدية ودخل الى البرلمان اللبناني الأول ما بعد الحرب. وعلى إمتداد التسعينات، كرس نفسه للحياة السياسية والبرلمانية، قائداً لكتلة مؤلفة من 3 نواب إسلاميين داخل مجلس النواب.

ومن العام 2000 وحتى العام 2005، حافظ يكن على عدم البروز كثيراً، محاولاً إعادة التواصل مع أصدقائه الإسلاميين القدماء وتطوير علاقاته مع عدد من الحركات الإسلامية عبر المنطقة، أهمها الإخوان المسلمين السوريين والأتراك. أما اليوم، فيعتبر فتحي يكن الرابط المستقل للنظام السوري مع الإخوان المسلمين السوريين (أو ما يعرف بـ "إذهبوا للرجل" عندما تكون دمشق راغبة بالتفاوض بشكل غير مباشر مع الإخوان المسلمين)، ليكون بذلك متمتعاً ليس فقط بعلاقات طيبة مع دمشق، وإنما بعلاقات ممتازة أيضاً مع أنقرة وطهران.

وفي آب 2006، شكل يكن جبهة العمل الإسلامي، وهي منظمة- مظلة تجمع تحتها جماعات ومنظمات سنية لبنانية كبرى من كل أنحاء البلاد بهدف "سد الثغرة الموجودة"، و"إنشاء هيئة رسمية موثوق بها للسنة في لبنان"، والتي "ستعمل بالتعاون مع هيئات رسمية موثوق بها أخرى". ومن هذه الجماعات، هناك حركة التوحيد الإسلامي، مجموعة إسلام بلا حدود، بقيادة رمزي ديشوم، بالإضافة الى عدد من أعضاء الجماعة الإسلامية، مثل عبد الله الترياقي الذي إنفصل عن القيادة وإختار الإنضمام الى صفوف يكن.

وما بين عامَيْ 1995 و 1999، شهدت طربلس نزاعاً مخيفاً بين الحركات الإسلامية الرئيسة (ممثلة بحركة التوحيد الإسلامي، الجماعة الإسلامية، والأحباش)، للسيطرة على المساجد. فإطار المسجد وبنيته ظلا مركز التحرك الأساسي للسلفيين، ليس فقط من خلال خطب الجمعة، وإنما من خلال الدروس الدينية أيضاً التي يقدمها بعض المشايخ بإنتظام الى الموالين لهم. وهذا وفر لـ "باسم كنج"، وهو شخص عائد من أفغانستان، فرصة لتأسيس مجموعة جهادية سلفية معارضة لجوهر التوجهات الإسلامية في المدينة. وبسبب ميزة مكانته الثورية وقدراته القيادية، إستطاع كنج حشد عدد مهم من المجندين وتابع عمله في تأسيس مخيم عسكري في الضنية، التي تبعد حوالي 50 كلم عن الجزء الشمالي- الشرقي من مدينة طرابلس؛ إنّ الناس الذين جذبهم إليه كنج لا علاقة لهم كثيراً بالفكر الإسلامي.

وقد ولد باسم كنج في العام 1964 في عزقا، وهي قرية صغيرة في منطقة الضنية. وبعدما نال شهادة تقنية في ثانوية في حي القبة الفقير في طرابلس، حصل كنج على منحة من مؤسسة الحريري في العام 1985، أتاحت له السفر الى أميركا حيث واصل دراسته في بوسطن. وفي بوسطن أصبح متأثراً، أكثر فأكثر، بالمؤتمرات حول الجهاد في أفغانستان التي كان ينظمها إسلاميون ومتعاطفون مع القضية الإسلامية الأفغانية، ومضى بالمساهمة بالتبرعات للمقاومة الأفغانية. ومن خلال هذه الإتصالات مع الخريجين الأفغان والداعمين لهم في بوسطن، تمكن كنج من مقابلة عدد من المغتربين اللبنانيين مثل خليل عكاوي، الذي كان مثله يواصل دراساته التقنية في أميركا. وبعد زواجه من إمرأة

أميركية تحولت الى الإسلام، ترك كنج الولايات المتّحدة في العام 1989. ومع الدعم اللوجستي من "دائرة الخدمات للمتطوعين العرب" الموجهة من قِبَل عبد الله عزام، سافر للمرة الأولى الى باكستان مع زوجته وإبنته، ووضع عائلته في مدينة بشاور، على طول الحدود الأفغانية- الباكستانية. وبعد جلسات تدريب عسكرية عديدة في باكستان، ذهب لمحاربة القوات السوفياتية في أفغانستان الى جانب أفغان عرب آخرين. وخلال المواجهات العسكرية، طوّر علاقات وثيقة وأخوية مع عدد من رفاقه الدينيين. وبعمر الـ 25 عاماً، تفاعل مع عدد من المتطوعين العرب الذين شكلوا لاحقاً نواة مجموعة "الضنية". وخلال هذه الفترة، إجتمع كنج، على ما زعم، بأسامة بن لادن وأيمن الظواهري. وقد جُرِحَ في القتال ضد السوفيات، وتم نقله في العام 1990 الى مستشفى في بيشاور.

وفي العام 1991، عاد بشكل مقتضب الى لبنان لنشر الرسالة التي تعلمها من أسامة بن لادن. أما بالنسبة للسنوات الثلاث التي أعقبت ذلك، فقد قاتل في البوسنة والهرسك الى جانب الميليشيات المسلحة، ليترك البلقان فقط بعد توقيع إتفاقيات دايتون في العام 1995. هذه الحياة والإستمرارية في البوسنة كان أمراً غير عادي تماماً، حيث أنّ المقاتلين كانوا يبقون لمدة تتراوح ما بين 12 الى 18 شهراً قبل الإنتقال الى منطقة صراع جهادي ثانية. وكانت الشيشان الإسم الثاني على جدول أعمال كنج، ومع ذلك، ولأسباب غامضة، رفض الرجال المسؤولون عن "دائرة المتطوعين العرب لأجل الشيشان" منحه تفويضاً بالقتال. وعاد الى أميركا ليعيش وحده لمدة عامين إضافيَّيْن، قبل أن يعود للإستقرار مجدداً في لبنان في قريته عزقا في العام 1996.

وكان يشغل بال باسم كنج أمران هيمنا على أجندته بعد عودته الى لبنان: إعادة بدء الإتصال مع رفاق الحرب القدماء في بيشاور وتأسيس شبكة جهادية سلفية في لبنان. وركز كنج جهود تجنيده على منطقتين: أحياء طرابلس الفقيرة ومخيم اللاجئين الفلسطينيين في عين الحلوة. وقد حدث تركيز كنج داخل عين الحلوة من خلال أحد رفاقه في بيشاور ويدعى أحمد القسام، الذي كان هو نفسه يملك علاقات وثيقة مع المجموعة الجهادية السلفية الفلسطينية "عصبة الأنصار". ووصلت علاقة كنج بصديقه الى نهاية مفاجئة عندما تم إعدام القسام بـ 24 آذار 1997 بسبب مشاركته في إغتيال زعيم الأحباش نزار الحلبي (كان القسام ناجحاً بسبب إيهاب البنا الذي كان يعمل كصلة وصل بين كنج وعصبة الأنصار). وإستطاع كنج الإجتماع بأمير عصبة الأنصار أبو محجن، وكذلك بمساعده أبو عبيدة، المسؤول عن الجناح العسكري للمجموعة. أما بالنسبة لأعضاء عصبة الأنصار، فقد كانت زيارة كنج مجاملة للغاية، حيث أنها حددت أهمية المجموعة المسلحة في المشهد المحلي للجهادية السلفية. وقدمت الزيارة أيضاً لرجال عصبة الأنصار الفرصة لمعرفة ظروف المسلمين في جبهات الجهاد المختلفة على إمتداد العالم ونشر نفوذهم خارج حدود عين الحلوة الضيقة.

وفي أوائل العام 1998، مضى كنج بتأسيسه مخيمات التدريب في منطقة الضنية مستفيداً من الخدمات اللوجستية للفلسطينيين الجهاديين السلفيين في عين الحلوة. وفي أقل من عام، كان كنج قادراً على تجنيد أكثر من 200 شاب من المنطقة مع تجنيد مركز على الأحياء الشرقية المكتظة من المدينة القديمة: أبو سمرا، القبة وباب التبانة. وقد خرج كنج بقوة الى الأضواء عندما شنت مجموعته هجوماً على الجيش اللبناني في الضنية في 31 كانون الأول 1999. وقد إستلزم الجيش 6 أيام ليهزم المتمردين. وقد صدمت المواجهات العسكرية الشعب اللبناني وأعادته الى ذكريات الحرب الأهلية. وبرغم أنّ "التمرد" فشل، وتم قتل معظم المسلحين (بالمجموع، تم قتل 31 شخصاً، 11 منهم من الجيش اللبناني، 5 من المدنيين و 15 من المسلحين الإسلاميين)، فإنّ عصبة من الناجين (بمن فيهم المقاتل الإسلامي السيء السمعة أحمد ميقاتي) فرت بواسطة زورق وإتخذت ملجأ لها في عين الحلوة. وبعد يوم من الحادث، إندفع الصحفيون اللبنانيون والمعلقون السياسيون للقول بأنّ الحادث في الضنية جاء كردة فعل من قِبَل المسلحين على مفاوضات السلام التي كانت قد بدأت قبل أسبوعين بين سوريا وإسرائيل في واشنطن. وإستنتج مراقبون آخرون بأنّ هدف المسلحين كان تأسيس دولة إسلامية في طرابلس.

إنّ فهم ما الذي أمِلت مجموعة الضنية بإنجازه ليس عملاً سهلاً. إذ أن العمل حتى بظل الفرضية القائلة بأنه كان لدى المجموعة تحالف ثابت وأكيد مع عصبة الأنصار، فإن من الصعب إدراك لماذا إعتقدوا- أو إذا كانوا قد إعتقدوا- بأنّ عمليتهم ستكون عملية ناجحة.

فمنطقة طرابلس في العام 2000 كان مُسيطراً عليها بشكل تام من قِبَل الجيش والمخابرات السورية. أما بقية السنة، وفي حين أنهم قد يكونوا يستحسنون عناصر معينة للإسلام الراديكالي، فإنهم بالتأكيد لم يكونوا متعاطفين مع مجموعة من اللا منتمين المنعزلين يقومون بتأسيس دولة في وسطهم . ويبدو بأنّ برنار روجيه يقدم التفسير الأكثر توازناً بقوله بأنّ هدف الإسلاميين كان أكثر تواضعاً وبراغماتية، من حيث أنه كان محدوداً بتجنيده الشبان من المنطقة للإنضمام الى القضية الإسلامية في الشيشان. إذ كان المقاتلون الإسلاميون لأجل القوقاز قد سبق وتشكلوا في عين الحلوة؛ وقد أراد باسم كنج أن ينشئ شبكة مشابهة لأجل الشيشان من شمال لبنان.

* العرقوب

إنّ أول إحاطة للعرقوب بالسلفية حدثت في أوائل السبعينات عندما أسس إثنان من الطلاب اللبنانيين الشبان من المنطقة الجنوبية حركة إسلامية دعيت لاحقاً بـ "حركة العرقوب السلفية". وقد وصلت أولى إشارات النشاط السلفي الى بلدة شبعا (التي هي جزء من منطقة العرقوب) في أوائل الثمانينات من خلال إحدى أبنائها هو الشيخ قاسم عبد الله، الذي أمضى معظم حياته كمهاجر في المملكة العربية السعودية. ومع الشيخ عبد الله، إنتشرت السلفية في مزارع شبعا، التي هي عبارة عن أرض متنازَع عليها مساحتها من 25 كلم2 الى 40 كلم2، وذات تعداد سكاني يبلغ حوالي 25000 نسمة موزعين ما بين قرية شبعا اللبنانية على المنحدرات الشمالية الغربية لجبل حرمون، قرية مجدل شمس الدرزية، والبلدات الإسرائيلية المشرفة عليها.

إنّ التهجير المجتمعي الضخم للعرقوب، عقب الغزو الإسرائيلي للبنان في العام 1982، مكن السلفية من الإنتشار الى المناطق المجاورة. وساعد إنسحاب الجيش الإسرائيلي في أيار 2000 كوادرها على معاودة الدخول الى العرقوب والبدء بالإنخراط مع سكانه عن طريق البدء بمشاريع تطويرية وتوفير الخدمات الإجتماعية، الثقافية، الدينية، الصحية والتعليمية. وعلى المدخل القريب من البلدة، بنى المشايخ السلفيون مسجداً عملاقاً دعوه مسجد أبو بكر الصديق، مستخدمين مساهمات خاصة وأموالاً من العربية السعودية والإمارات العربية المتّحدة. وقد إزدهرت السلفية في العرقوب نتيجة عقود من الإهمال، الفقر وعدم التطور في المنطقة. فآثار القصف الإسرائيلي في السبعينات لا تزال حاضرة اليوم: عشرات المنازل والمساجد المدمرة، الأرض الزراعية المتصحرة، بطالة الشباب، الإنتاج الزراعي الرديء، البنية التحتية القديمة وظروف الطرقات السيئة. وينضم الى هذا الإهمال أيضاً سلة من المشاكل الضريبية والإجتماعية، بما فيها سوء إستخدام السلطة الظاهر لعدد من رجال الدين. إنّ كل ظروف هذه الأزمة مجتمعة فتحت الباب أمام قوة الدين الناشئة وأمام الإيديولوجية السلفية.

إنّ حركة العرقوب السلفية غير مركزية وتعمل، الى حد كبير، من خلال شبكات إجتماعية غير رسمية– مجموعات دراسية، الأنشطة ذات الصلة بالمساجد، حلقات بحث، منشورات، دروس في أماكن سكنية خاصة، روابط شخصية وعائلية، العلاقات بين الطالب والمعلم– التي تتقاسم معها التفسير المشابه للإسلام. وقد ساعدت هذه الشبكات الحركة بتجنب تدخل الدولة، كما برهن على ذلك القمع المكثف والإنهيارات الأمنية الكبرى.

ومن الصعب تحديد حجم حركة العرقوب السلفية بسبب طبيعتها السرية أولاً. فأعضاؤها يدّعون بأنهم لا يؤمنون بالأرقام لأنهم يمثلون حركة "فكرية". على كل حال، تستفيد الحركة في نفوذها وتوسعها من تعاونها وتنسيقها مع مؤسسة الأوقاف الإسلامية ومركزها صيدا، وهي منظمة خيرية سنية. ويقول بعض المراقبين من المنطقة بأنّ العدد لا يزال منخفضاً نسبياً ولا يتعدى الـ 50 عضو. أما في قرى أخرى من قرى العرقوب، فإنّ العدد ليس أكثر من مئة شخص، خاصة لأنّ تيارات أصولية أخرى، بما فيها الأحباش والجماعة الإسلامية، تتنافس على النفوذ، الأمر الذي يضيّق من حجم المجندين ويقسمه الى ثلاث طرق.

فالحركة تدعم حزب الله في نضاله العسكري ضد الإحتلال الإسرائيلي في مزارع شبعا، لكنها لا تشارك في القتال. وليس هناك، وهو ما يدعو للدهشة، من نشاط عسكري سري أو علني لحزب الله في منطقة العرقوب، حيث توجد معركة مفتوحة مع القوات الإسرائيلية هناك. أما دور حركة العرقوب، فمحدود بـــ "تنوير" المسلمين وتوفير الخدمات الإجتماعية للفقراء. ويؤكد سلفيو العرقوب بأنّ أنشطتهم محددة بالوعظ والخدمات الإجتماعية لكن "إذا عادت إسرائيل الى إحتلال أرضنا، فإنّ إسلامنا يفرض علينا الدفاع عنها وعن عائلاتنا". والكـــل لديه إيمان بحزب الله ويؤيد مسألة عدم نزع سلاح المجموعة الشيعية بالقوة. "لو أنّ سلاح حزب الله لم يكن موجوداً لكنا قمنا بالقتال ضد الإسرائيليين بأنفسنا"، بحسب ما يكرر هؤلاء دوماً.

أما اليوم، فإنّ حركة العرقوب السلفية تخضع لمراقبة عن كثب من قِبَل قوى الأمن الداخلي اللبناني، وتدّعي السلطات اللبنانية بأنّ الحركة قامت بشن هجمات إرهابية ضد أهداف لبنانية وأجنبية في الماضي. أما الحركة، فتنكر أي تورط لها في أية أنشطة إرهابية.

* مجدل عنجر

إن مجدل عنجر، الواقعة في سهل البقاع اللبناني قرب الحدود السورية، هي إحدى المعاقل الأولى للإيديولوجية والنشاط السلفي في منطقة البقاع. وينسب السلفيون من مجدل عنجر، البلدة التي يبلغ تعدادها 20000 نسمة، بروز السلفية في منطقتهم الى الشيخ زهير الشاويش، الذي هو، وبشكل مثير للجدل، أقدم الواعظين السلفيين المؤسسين في لبنان. فمن خلال مواعظه وأعماله الكتابية (المنشورة من قِبَل مركز إسلامي يملكه)، ساعد الشيخ الشاويش على نشر "الرسالة السلفية".

كما نمت السلفية تدريجياً كتيار إيديولوجي بعد عودة عدد من المتخرجين البقاعيين من الجامعة الإسلامية في المدينة المنـــورة في العربيـــة السعودية في العام 1986، وأهم هؤلاء المتخرجين كان الشيخ عدنان محمود أُمامة والشيخ حسن عبد الرحمن. وقد أسس هذان الـــرجلان المجموعة السلفية في مجدل عنجر. وأصبحت مجدل عنجر بؤرة بعدما قُتل 5 من سكانها في العراق في العام 2005 وهم يحـــاربون القـــوات الأميركية. وهؤلاء هم حسن صوان، علي الخطيب، محمد نوح، مصطفى درويش رمضان وحفيده محمد. أما اليوم، فهناك رجـــل يـــدعى مصطفى كردي بيروتي، متزوج من إمرأة من مجدل عنجر، هو المسؤول، على ما قيل، عن تدريب شبان البلدة وإرسالهم الى العراق.

ومن بين الرجال الخمسة الذين ماتوا في العراق كمتمردين، كانت قصة مصطفى درويش رمضان هي ما إسترعى إهتمـــام الصـــحافة اللبنانية والعراقية. فرمضان مولود في بيروت، لكنه من سلالة كردية، ومتزوج من إمرأة من مجدل عنجر. وكونـــه أمضـــى 14 عامـــاً في الدانمرك، فقد طوّر إتصالات مكثفة مع إسلاميين راديكاليين عبر أوروبا. وفي النهاية، إنضم الى فرع من فروع أنصار الإسلام، وهي منظمة سنية كردية لها جذور في شمال العراق. وخلال أيامها الأولى، لم تكن أنصار الإسلام متورطة سوى في صراعات محلية، لكن خلال الفترة التي الذي إنضم إليها رمضان، أعادت المنظمة تقديم نفسها كقوة دولية في الجهادية الإسلامية وتوسعت داخل أوروبا.

وعاد رمضان الى مجدل عنجر في خريف 2003، وصُدم أهل بلدته بسبب التغييرات المثيرة في مظهره وسلوكه. لقد كان متقشفاً، يلبس كمجاهد أفغاني، وترك لحيته تنمو. وبدأ رمضان يدور وسط الشباب السلفيين لتحويلهم الى مذهب جديد وكسبهم في دعوته للـــتكفير أو العمل على عزل أي شخص معارض للقضية الجهادية السنية. وفي حزيران 2003، أجبرت الخلافات داخل المجتمع رمضان وعائلته على ترك مجدل عنجر الى كفر زيد، القرية المجاورة. وكان قادراً، آنذاك، على جذب مجموعة شكلت النواة من الموالين الشباب الـــذين تم تجهيـــزهم للذهاب للعراق ومحاربة المحتلين. وفي العام 2004، ظهر رمضان كقائد كبير لأنصار الإسلام، التي يشتبه الأميركيون والعراقيون بتنفيـــذها أكثر من 40 تفجير إنتحاري وهجمات أخرى، أدت الى مقتل أكثر من ألف شخص. وكان رمضان يعمل، في ذلك الحين، تحت إسم أبـــو محمد اللبناني، وأصبح مساعداً مقرباً لأبو مصعب الزرقاوي، أمير القاعدة في العراق والذي قتلته القوات الأميركيـــة في حزيـــران 2006.

وإستمر اللبناني بتجنيد المتطوعين من مجدل عنجر، مهرباً إياهم الى العراق. لكن في أوائل العام 2005، ذُكر بأنّ أبو محمد اللبناني قد قتل. ورحّب المسؤولون الأميركيون بذلك، ولكنهم كانوا يشكون بالأمر، إذ إعتقدوا بأنّ تلك المعلومات قد تكون مضللة.

وعلى كل حال، أكدت المصادر العراقية- الكردية بأنّ اللبناني قضى نحبه في ضربة جوية أميركية. وبعد بضعة أشهر، لاقى إبنه محمد المصير نفسه. وظل إرث رمضان قوياً كما ظهر ذلك جلياً في أيلول 2004، عندما تم إعتقال بضعة رجال من مجدل عنجر (أكثر من 35 رجل) بتهم مختلفة تتعلق بالإرهاب، بما في ذلك تشجيع الشبان على القتال في العراق ومحاولة تفجير السفارة الإيطالية في بيروت. كما أنّ المشتبه به، الموصوف بكبير عملاء القاعدة في لبنان، قد مات، على ما قيل، من جراء نوبة قلبية لاحقاً تحت الإستجواب. وصرح وزير الداخلية آنذاك إلياس المر (حالياً وزير دفاع) بأنّ محمد الخطيب، المشتبه به في القاعدة البالغ من العمر 31 عاماً، كان يخطط لتفخيخ سيارة بـ 300 كلغ من المتفجرات لتفجير السفارة الإيطالية. وأضاف المر قائلاً بأنّ شبكة الخطيب الجهادية السلفية كانت تتآمر أيضاً للقيام بهجوم معقد ضد السفارة الأوكرانية في بيروت. وتظاهر سكان مجدل عنجر وإعترضوا على جزم الحكومة اللبنانية بأنّ الخطيب مرتبط بالقاعدة، مدعين بأنه أمي وبأنه لم يكن يمتلك آلة فاكس أو كومبيوتر حتى.

* قارون

كان سكان قارون من المسلمين والمسيحيين، في منتصف الثمانينات، كسكان عدد من القرى والبلدات المختلطة في المنطقة، يعيشون بسلام ومتحررون نسبياً من التوترات الطائفية أو التمييز الديني. وظهرت السلفية في منطقة البقاع الغربي لاحقاً بسبب تراجع الحركة الوطنية منذ مقتل الزعيم الدرزي كمال جنبلاط ورحيل القوات الفلسطينية عن لبنان. وتُلقي روايتَيْ علي حاتم وقاسم زهير الضوء على تشكيل ونمو التيار الجهادي السلفي في قارون.

تخلى حاتم عن دراساته في كلية الشريعة الإسلامية في بيروت في منتصف الثمانينات ليسافر الى أفغانستان ويحارب الى جانب المجاهدين. وكان عضواً في حركة التوحيد الإسلامي. وفي العام 1984، ترك زهير لبنان الى كولومبيا، حيث إلتقى ودرس على يد حسين أحمد، وهو شيخ سلفي جهادي لبناني كان عضواً في الإخوان المسلمين. وبعد ثلاث سنوات، عاد زهير الى لبنان. وفي قارون، إنضم لفترة وجيزة الى حاتم وحركة التوحيد الإسلامي في حربها خلال الحرب الأهلية اللبنانية. وفي أوائل العام 1988، سافر الى كندا، وكان يتردد على المركز الإسلامي الكندي في "إدمنتون"، حيث عاش وتمكن من الإلتقاء بعدد من الجهاديين السلفيين الذين كانوا يعملون في جمع التبرعات للمجاهدين في البوسنة، كشمير وأفغانستان. وفي العام 1993، سافر زهير الى بيشاور ليتوحد مجدداً مع حاتم ويقنعه بالعودة الى لبنان. وعند عودته الى وطنه، زار عبد الكريم السعدي، زعيم عصبة الأنصار، مرتين على الأقل. وقد إتفق الإثنان على الحاجة الى الجهاد المقدس وتأسيس دولة إسلامية في لبنان. وفي العام 1995، تم تقديم زهير الى باسم كنج، زعيم مجموعة الضنية، وذلك خلال المؤتمر الإسلامي العالمي في شيكاغو. وبعد إجتماعات عديدة، إتفق حاتم وزهير على دمج مجموعة قارون مع مجموعة الضنية في الشمال. وكانت مهمة المجموعة الأولى تأمين التمويل والأسلحة للمجموعة الأخيرة. وجاء التمويل من تبرعات كان زهير قد جمعها في كندا، باناما والبرازيل، بينما كان السلاح يتم تزويده من قِبَل متعاملين في هذا المجال في البقاع.

وقد واصل عدد من أعضاء مجموعة قارون- الضنية عملهم إنطلاقاً من مبدأ الجهاد ضد إسرائيل، وكونهم كانوا، وبشكل طبيعي، ضد ما كان يتعرض له المسلمون في أفغانستان، كوسوفو وفي أي مكان آخر من العالم. ولا يزال يوجد شخص واحد فقط من أصل الـ 13 شخصاً رهن الإعتقال. وهناك إثنان آخران هاربان، أحدهما هو حاتم. وقد تم إطلاق سراح الآخرين جميعاً، لكنهم لا يزالون يمثلون أمام

المحكمة العسكرية في جلسات المحاكمة. وتقول التقارير بأنه أُطلق سراحهم لأنهم لم يكونوا متورطين بالصدامات التي حدثت في الضنية، ولأنهم رفضوا الدخول بأي قتال ضد الجيش اللبناني.

* صيدا

تقع مدينة صيدا على بعد حوالي **20** كلم جنوب بيروت، وهي أكبر مدينة لبنانية في الجنوب. إنها مدينة نامية وحية وبمثابة عاصمة للجنوب وأكبر مركز تجاري ومالي فيه. فمع تعداد سكانها الذي يصل الى حوالي **125000** نسمة، تتشكل صيدا من **90%** من المسلمين السنة و **10%** من الشيعة والمسيحيين.

وكانت صيدا معروفة دوماً بتسامحها الديني وتعايشها الطائفي. لكن خلال الحرب الأهلية، تعرضت إنسجامها وتوافقها المجتمعي الداخلي لتجربة مميتة، حيث شهدت صيدا، كمعظم المدن في لبنان، قتالاً طائفياً بين الميليشيات المسلمة والمسيحية. فبالنسبة لصيدا، كان عدم الإستقرار، تحديداً، السمة الأكثر وضوحاً فيها، حيث كان على المدينة أن تعاني من أكبر تدفق للاجئين الفلسطينيين الذين هاجروا نتيجة الحرب العربية- الإسرائيلية عام **1948**. ومن بين أولئك اللاجئين- الذين تمركزوا في مخيمات حول المدينة- كانت منظمة التحرير الفلسطينية، التي لعبت دوراً ناشطاً في الحرب الأهلية اللبنانية.

أما بالنسبة لكبار علماء السنة الصيداويين، فإنّ نمو الإيديولوجية السلفية في مدينتهم أمر مبالغ فيها حسب إعتقادهم. فبنظرهم، من الضروري أولاً التمييز بين القسم الإرشادي الواعظ للسلفية، الذي يوافقون على أنه يتم في المدارس العامة في صيدا، وبين القسم الجهادي الذي يعتبرونه هامشياً وغير منظم. أما ما يعقد الأمور، على كل حال، فهو أنّ كل من الفئات السلفية والجهادية السلفية تستخدم نفس المبادئ والمراجع النصية. فالإختلافات حول الإستراتيجية، وليس النظرية، هي التي تفصل هاتين المجموعتين.

إنّ التوافق العام في صيدا هو أنّ تاريخ الإيمان بالتعددية الفلسفية والمركنتيلية (طرق وتطبيق الروح التجارية) للمدينة يحدث تأثيراً ضد إنتشار التطرف الديني. بالواقع، لم يتمكن التجار الذين كان عليهم التواصل، المتاجرة وإنجاز الأعمال مع مجتمعات مجاورة وأجنبية من تحمل تبني مواقف متطرفة أو منغلقة. وفي هذه الأثناء، من المستحيل تقريباً التفريق بين سني وشيعي في صيدا، إذ ينحدر الجميع من نفس العائلات والأحياء ويعيشون بسلام معاً. أما السبب الآخر الذي يجعل من الصعب على التطرف الإسلامي العثور على أرض خصبة له في صيدا، فهو المشهد السياسي الذي قد تسبب، تاريخياً، بولادة أحزاب سياسية وشخصيات قومية وعلمانية كانت معارضة كلياً للمبادئ الإسلامية الراديكالية. ومع ذلك، فقد ظهرت الإيديولوجية السلفية في صيدا في أواخر الثمانينات عندما إستقر عدد من العلماء السنة اللبنانيين القادمين من بيروت الى صيدا، في المدينة وبدؤوا بإلقاء المواعظ حول "الطريق الصحيح للنبي محمد". وبدا بأن إثنين من الواعظين هما، بالتحديد، عبد الهادي وداعية الإسلام الشهّال، هما الأكثر تورطاً في "نشر الرسالة السلفية". ومنذ ذلك الحين، والسلفية تنمو تدريجياً، ولكن بشكل مؤكد، في صيدا برغم أنّ أتباعها كانوا منشقين الى معسكرين: أولئك الذين يفضلون النشاط اللاعنفي (السلفية) مقابل أولئك الذي يدعون للتكتيكات المسلحة (الجهاديون السلفيون). وفي أوائل التسعينات بنى أتباع السلفية اللاعنفية مسجدهم الأول في حي الزهور، من خلال التحويلات النقدية من العربية السعودية.

وفي حي الزهور في صيدا، هناك نديم حجازي، الذي يدير جمعية الإستجابة، وهي رابطة إسلامية سنية مسجلة لدى الدولة تتلقى تمويلاً هاماً من العربية السعودية، وحجازي رجل دين سني لبناني يخطب كل يوم جمعة متحدثاً عن فضائل السلفية في مسجد الصحابة. أما اليوم، فتبني جمعية الإستجابة مدرسة في ضواحي مخيم المية والمية الفلسطيني، بالإضافة الى الإنخراط في عمل الدفاع المدني. أما في حي الصباغ، فهناك أبو زكريا أبو هداوي، وهو رجل دين سني لبناني مقرب من حجازي، يدير بشكل مستقل مؤسسة خاصة تدعى "كتاب الصحابي عبد الله

من مسعود". ويُدرس معهد أبو هداوي السلفية والدراسات الدينية. وعلى مدى العقد الماضي، كان أبو هداوي وحجازي يعملان على إدخال السلفيين الصيداويين الذين لديهم ميولاً جهادية، ملحين عليهم بالعودة الى "الطريق الصحيح" الذي سلكه النبي.

ويلتقي رجُليْ الدين مع الشباب والمجندين الجهاديين السلفيين المتنورين في المساجد الموجودة في القسم القديم من المدينة و يتناقشون معهم حول تاريخ صيدا ويشرحون الأسباب التي لأجلها يجب أن تظل المدينة معقل الحداثة الدينية. وقد يقتنع البعض ويتحولون عما هم عليه ، إلا أنّ آخرين سيدحضون الإعتقاد بوجوب حل النزاعات بطريقة سلمية وينضموا الى رفاقهم في عين الحلوة، ثاني أكبر مخيم فلسطيني في لبنان. فمخيم عين الحلوة الفلسطيني هو، على ما يُقال، أرض تجنيد مزدحمة بتيارات القاعدة في لبنان والتمرد في العراق.فعين الحلوة الوقعة في الجزء الجنوبي الشرقي لمرفأ صيدا والذي يشتهر بأنه المخيم الأكثر فقراً وراديكالية للاجئين الفلسطينيين في العالم العربي، هو موطن حوالي 75000 لاجئ.

ويفرخ مخيم عين الحلوة الراديكالية والإحباط. فبعد 5 عقود تقريباً من إنشائه، لا يزال المخيم يعاني من عدم وجود مياه جارية نظيفة أو مجاري لمياه الصرف الصحي. ويعيش اللاجئون هناك على قطعة أرض مساحتها ثلاثة أرباع ميل مربع محاطة بنقاط تفتيش للجيش اللبناني ودباباته من جميع الجهات. ويعتمد لاجئو مخيم عين الحلوة على وكالة غوث الأمم المتّحدة (الأونروا) لبناء المنازل، العناية الصحية والمدارس. فهم فقراء جداً ولا يملكون موارد دخل مستقلة. ويسيطر الجيش اللبناني على المداخل الأربعة لعين الحلوة. أما الأمن الداخلي (داخل المخيم)، على كل حال، فتحافظ عليه مجموعات فلسطينية متنافسة، بدءاً من اليسار المتطرف الى اليمين المتطرف. وكانت سياسة الحكومات اللبنانية المتعاقبة، منذ إنشاء عين الحلوة، إعطاء التعليمات للجيش بالتراجع عن دخول المكان بسبب التخوف من حدوث صدام مع عشرات الفئات المسلحة، على ما قيل، والتي تتنافس كلها للحصول على النفوذ داخل المخيم. إنّ عين الحلوة منطقة صراع على حافة الإنتشار الى صيدا المجاورة، في الوقت الذي يعود فيه الجهاديون السلفيون من الحروب في أفغانستان، الشيشان، والعراق متشربين عقيدة الجهادية التي تجر عدد أكبر من المجندين الأمر الذي يؤدي الى تغيير لون الحركة الفلسطينية التي كانت علمانية ذات مرة.

لقد كان الغزو الإسرائيلي للبنان في حزيران 1982 هو ما كشف عن وجود شبكات الجهادية السلفية داخل المخيم. ففي عين الحلوة، ثبت المقاتلون الإسلاميون في مكانهم ضد إسرائيل حوالي 20 يوماً من المعارك، التي وصفها الإسرائيليون لاحقاً بالأكثر وحشية أثناء الغزو. فالإسلاميون الذين كانوا مسؤولين عن الدفاع عن المخيم كانوا جميعاً، تقريباً، من تلاميذ الشيخ الفلسطيني إبراهيم الغُنَيِّم، الذي فقد إبنه خلال حصار المخيم.

ويقدم برنار روجيه السيرة الذاتية الأكثر شمولية للشيخ الجهادي السلفي الفلسطيني. إذ يصف روجيه الشيخ الغُنَيِّم على أنه "الأب الروحي للمتديّنين الفلسطينيين". وتعتبر السيرة الذاتية للشيخ هامة حيث أنها تلقي الضوء على التحول الراديكالي لمخيم عين الحلوة. ويأتي الغنيّم، المولود في العام 1924 في قرية الصفورية في محافظة الناصرية، من عائلة فلسطينية فقيرة. وكان قد فر في العام 1948 من فلسطين نتيجة الحرب الإسرائيلية– العربية، وإستقر في شرق بيروت في منطقة تدعى المسْلخ، حيث عمل كعامل بناء بسيط. وفي أوائل الخمسينات، أصبح عضواً في منظمة صوفية من المنطقة من خلال وساطة محمد أحمد الجُميِّد، وهو شيخ سوري من أصل كردي. وإلتقى الغنيّم مرشد المنظمة الصوفية في حلب في العام 1953 ليتم تعيينه لاحقاً لنشر مبادئ الصوفية في بلدة عكار الصغيرة في شمال لبنان. وفي العام 1963، إنتقل الشيخ الغنيّم الى عين الحلوة، حيث بدأ بتعليم علم المذهب الصوفي في مسجد النور. وأصبح تلامذته لاحقاً– جمال خطاب، عبد الله حلاق، وكلاهما فلسطيني، ومحرم العريفي، وهو لبناني– الشخصيات الرئيسة للأسلمة الراديكالية في المخيم في صيدا.

وسافر الغنيّم الى طهران خلال غزو العام 1982 الإسرائيلي للبنان وساعد في تنظيم "المؤتمر الدولي للمحرومين"، الذي عقده النظام الإيراني. ولاحقاً، أقام في مخيم نهر البارد الفلسطيني جوار طرابلس. وفي نفس العام، تم إعتقاله لمدة شهرين من قِبَل المخابرات السورية في

سجن المزة السيء السمعة في دمشق بسبب روابطه المزعومة مع الإخوان المسلمين السوريين الذين كانوا (ولا يزالوا) في حرب مع النظام السوري. وبعد إطلاق سراحه، سعى الى الحماية بظل النظام الإيراني.

وفي العام 1984 ساعد بإنشاء جماعة سرية مسلحة تدعى "الحركة الإسلامية المسلحة المجاهدة" التي كان قادها الرئيسيون الشيخ جمال خطاب والشيخ عبدالله حلاق، تلميذيْه السابقين. ومع المساعدة المالية للسفارة الإيرانية في بيروت، بنى الغُنيّم مسجد القدس في مخيم نهر البارد، وهو يعيش، حتى اليوم، في شقة متواضعة قرب المسجد.

وخلال التسعينات، شارك الغُنيّم في كل الإحتفالات التي نظمها حزب الله حول مستقبل فلسطين السياسي. وفي العام 1992 ساهم بإنشاء مركز توجيه عسكري دُعي بـ " حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين" في خان العبدة في المنطقة الشمالية من مدينة عكار. وكصديق قديم للشيخ سعيد شعبان، الزعيم الراحل لحركة التوحيد الإسلامي، وتابعاً مخلصاً للنظام الإيراني في وسط المحيط السني، إستطاع الغُنيّم ترسيخ علاقات جيدة مع بلال سعيد شعبان (إبن سعيد شعبان) الذي تولى قيادة حركة التوحيد الإسلامي منذ وفاة والده.

وقام أحد تلامذة الشيخ الغُنيّم في عين الحلوة، هو هشام الشريدي، بإنشاء "عصبة الأنصار". وأصبحت المجموعة في أوائل التسعينات الفئة الجهادية السلفية الرئيسة في عين الحلوة.

وقد ولد هشام الشريدي، الذي هو بالأصل من قرية الصفصاف في الخليل، في عين الحلوة في العام 1957 . ومنذ بلوغه سن الشباب واصل الشريدي دراسته الدينية الإسلامية تحت إشراف الشيخ الغنيم في مسجد النور. وبعد سقوط المخيم، سقط الشريدي بأيدي الإسرائيليين وسجن في أنصار مدة عام ونصف. وبعدما أُطلق سراحه كجزء من صفقة تبادل سجناء، عُيّن رئيساً لخطباء مسجد الشهداء، المبني على تخوم المدخل الشمالي للمخيم. إنّ التكوين الديني الناعم للشريدي لم يمنعه من أن يكون أحد قادة المخيم الأكثر نفوذاً وسحراً. فخبرته العسكرية في محاربة الإسرائيليين عوضت عليه إفتقاره للإعداد الديني. وبالعودة الى ذاك الحين،فإن مجموعة الشريدي كانت تدعى أنصار الله. أما الفرق، بحسب ما يقول روجيه، فليس لفظياً فقط: فخلال تلك الفترة، كانت المجموعة جزءاً من شبكة بدائل إيرانية في لبنان، وكانت معتادة على تنسيق عملياتها العسكرية مع مجموعات شيعية لبنانية شكلت لاحقاً نواة حزب الله. فالمعارك في العام 1985 ضد القوات اللبنانية المسيحية المارونية التي جُرِحَ خلالها الشريدي، أعطت فلسطينيي المخيمات الفرصة لتأكيد هويتهم الإسلامية المشتركة بمواجهة "المؤامرة المارونية– الصهيونية". وفي أواخر الثمانينات، وصل العداء بين مجموعة الشريدي والقائد المحلي لفتح في عين الحلوة، أمين كايد، الى نقطة اللاعودة.

ومع وضع الخلافات السياسي جانباً، فإنّ لب المشكلة هو في الخلافات حول إستراتيجية تحرك الأسلمة بين أوساط سكان المخيم. ولتعزيز موقعه، تحالف الشريدي مع جمال خطاب، المسؤول السابق في منظمة التحرير الفلسطينية وتلميذ الغُنيّم الذي كان قد إنفصل عن فتح بعد تأسيسه تحالفاً مع أحمد جبريل، المنشق الموالي لسوريا، وقائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين– القيادة العامة. وفي العام 1990، قامت مجموعة أنصار الله بتنسيق أنشطتها العسكرية مع كتائب عين الحلوة، أي ميليشيا جمال الخطاب المحلية. وتم تأسيس مخيماً للتدريب في منطقة جبل حليب شرق صيدا. ومع بلوغه سن الـ 48 عاماً الآن، يُعبتر الشيخ خطاب أحد أهم الشخصيات الدينية نفوذاً داخل المخيم. وكونه حاملاً شهادة في إدارة الأعمال من الجامعة الأميركية المرموقة في بيروت (AUB) في أوائل الثمانينات، أصبح شيخ جامع النور الرئيس في أواخر الثمانينات. بالإضافة الى واجباته الدينية، عمل خطاب كمحاسب مع الأونروا الى حين تسريحه في العام 1993، لأسباب تتعلق بالتحريض على الكراهية الطائفية بين المواطنين اللبنانيين. ومنذ ذلك التاريخ، لم يخرج مطلقاً من المخيم.

وكان الشيخ خطاب قد شكل حوله، تدريجياً، نواة صلبة من الأعضاء الذين يحتشدون في مكتبة الهدى قرب مسجد النور. ويستخدم خطاب المكتبة كقاعدة تجنيد لحركته الجهادية السلفية. أما هدفه، فهو سكان المخيم المتعددي الجنسيات. فأبو محمد المصري، على سبيل المثال، هو محارب مصري قديم من أفغانستان، فر من مصر في العام 1993 بعد محاربة نظام مبارك الى جانب الإخوان المسلمين. وقد تم

تصنيف أبو محمد المصري من قِبل الصحافة اللبنانية على أنه الممثل المحلي لأسامة بن لادن في عين الحلوة. وفي آذار 2003، تم إغتياله صباحاً بسيارة مفخخة خارج مطعمه الصغير بعد عودته من الصلاة في مسجد النور.

وفي 15 كانون الأول 1991، تم إغتيال الشيخ الشريدي– بعد أوامر من أمين كايد على الأرجح– أمام مسجد الشهداء، الذي أُطلق عليه لاحقاً إسم "مسجد الشيخ هشام". وأثناء جنازته، كانت زوجته والداعمين له، بمن فيهم الشيخ ماهر حمود، الشيخ عبد الله حلاق، وسعيد بركات (قائد الجهاد الإسلامي في المنفى)، يهتفون "أبو عمار– الإسم المستعار لرئيس منظمة التحرير الفلسطينية الراحل ياسر عرفات– عدو الله".

وأصبحت عصبة الأنصار الميليشيا الإسلامية الأولى في عين الحلوة التي تؤيد صراحة الجهادية السلفية. وكان عبد الكريم السعدي (أو أبو مُحجن)، وهو تلميذ سابق أيضاً للشيخ الغنيّم، خلف إعادة تسمية المجموعة. وإنتخُب كخليفة من قِبَل لجنة تلامذة الشيخ الغنيّم السابقين. وعندما قُلد منصب القيادة، لم يكن أبو محجن يبلغ من العمر سوى 28 عاماً. إنّ صعوده البارز في عين الحلوة ومسألة تعيينه يمكن ربطهـا بإنتشار السلفية الجهادية في المخيم وفقدان نفوذ الوصاية الإيرانية والأسلمة الخمينية.

وفي أي مخيم أو حي فلسطيني، تكون الجدران مزينة ببوسترات تصور "شهداء" الحرب ضد إسرائيل. لكن في حي عصبة الأنصار، فـإنّ الساحة العراقية واضحة. فالطريق الرئيس أعيد تسميته بإسم "شهداء الفلوجة"، وتمجد اللافتات رجال قتلوا وهم يحاربون الى جانب أبـو مصعب الزرقاوي. وقد كان هناك عدد من الحالات التي تثبت وجود رابط، كما هو موثق من قِبَل معهد "سـايت"، بـين عـين الحلـوة والقاعدة. فعدد الشبان الذين يُعتقد بأنّ عصبة الأنصار قد أرسلتهم الى الساحة العراقية كبير: أشخاص مثل أحمد محمود الكردي (لبناني)، عماد الحايك، نضال حسن مصطفى (أخ أبو عبيدة، الناطق بإسم عصبة الأنصار)، صالح الشايب، عمر ديب السعيد، أحمد ياسين، وحسن ومحمود عبد الله زيدان. وهذا غيض من فيض...

وهناك أمثلة أخرى متوافرة كثيرة. ففي 7 تشرين الأول، أصدرت عصبة الأنصار تصريحاً من عين احلوة تؤكد فيه على أنّ أحد أفرادها، أبو قُتيبة المقدسي، قد أصبح شهيداً في العراق بعد مواجهته "الصليبيين". وفي 9 حزيران 2006، نشرت عصبة الأنصار رسالة تدعو فيهـا لمسيرة تكريماً للزرقاوي. وبعد ثلاثة أيام، تم توزيع خطبة مدتها نصف ساعة للشيخ أبو شاري عقل في مسجد الشهداء، كانت عبارة عـن خطاب تأبيني للزرقاوي، وذلك عبر عدد من المنتديات الجهادية. وفي 23 أيار 2006، ظهر عضو عصبة الأنصار أيمن نور صلاح (المدعو أبو حفص) في شريط فيديو يعلن فيه "إستشهاده" تحت قيادة القاعدة في العراق. وفي 19 أيلول 2006، نشر "مجلس شـورى المجاهـدين" في العراق ووزع السيرة الذاتية لأبو جعفر المقدسي، العضو في عصبة الأنصار، واصفاً الحرب التي كان أبو جعفر يخوضها وملقياً الضوء على شجاعته وبراعته العسكرية الفائقة مقابل "الخوف والجبن الأميركي" المزعوم. وصور كاتب السيرة أبو إسماعيل المهاجر أبو جعفر كصاحب للزرقاوي ورفيقاً مقرباً منه، وكرسول له وحاميه الشخصي ومستشاره العسكري والإعلامي.

إنّ عصبة الأنصار هي، وبشكل مثير للجدل، المجموعة الجهادية السلفية الأكثر قدرة في عين الحلوة (رغم أنها ليست الوحيدة). فمع مـا يقدر بقوة تبلغ ما بين 200 الى 300 عضو، فإنّ هذه المجموعة المسلحة هي، على ما قيل، مصدر عدد من الهجمات الإرهابية ضد أهـداف محلية وأجنبية في لبنان. وفي العام 1999، إتُهمت المجموعة بتفجير دائرة الجمارك اللبنانية كما إتهمت بقتل أربع قضاة لبنـانيين في القصـر العدلي في صيدا. وفي العام 2000، تم ربط هذه المجموعة بهجوم ضد السفارة الروسية في بيروت بقاذفات صواريخ. وبعد عام من ذلـك، أحبطت القوى الأمنية اللبنانية والأردنية هجوماً مزعوماً آخر من قِبَل المجموعة ضد السفارات الأردنية، الأميركية والبريطانية في لبنان. وفي تشرين الأول 2002، إحتجزت السلطات اللبنانية لبنانييْن ورجل دين واحد من الجنسية السعودية كان لديهم علاقات مزعومة مع عصبة الأنصار لمحاولتهم تأسيس معسكريْن في لبنان لإيواء أشخاص مرتبطين بالقاعدة على عجل وبالسر. وتم تحديد هوية ثلاثة أفراد هم السعودي إيهاب دفاع (أبو حارث) واللبنانيَيْن محمد سلطان وخالد ميناوي. وإتهموا بمحاولة إستئجار منزل للخلية الإرهابية في بيروت وشراء جهاز

إتصال لاسلكي بقيمة 7000 دولار لكبير عملاء القاعدة المزعوم في إيران، السعودي أبو عبد الرحمن السعودي. وكان الجهاز مصمماً لمساعدة قناة سعودية لتهريب رجال القاعدة على الحدود ما بين إيران وأفغانستان. كما خطط الرجال الثلاثة لإحضار خبراء متفجرات فيليبينيين لتدريب الجهاديين السلفيين في لبنان. كما كشفت الإستجوابات، على ما زعم أيضاً، بأنّ ميناوي كان قد سافر سابقاً في تلك السنة بجواز سفر مزيف للإجتماع في تركيا مع رئيس شبكة القاعدة هناك المدعو عبد الله التركي. وفي نيسان 2003، إعتقلت السلطات اللبنانية 22 مشتبهاً بهم لتفجيرهم مطعم الماكدونالدز في بيروت. وقد حاولت المجموعة أيضاً إغتيال السفير الأميركي الأسبق في لبنان، فنسنت باتل، عندما كان يزور طرابلس في كانون الثاني 2003. إذ حاول المسلحون، على ما قيل، إطلاق صاروخ خارق للدروع على سيارة السفير.

وقد قادت الخلافات داخل عصبة الأنصار حول إستراتيجيات تحرك الأسلمة، على ما قيل، عدداً من أعضائها الى الإنشقاق وتشكيل مجموعة، مع مقاتلين آخرين (بعضهم ينتمون الى مجموعة الضنية)، تدعى جند الشام (ما يعني بلاد سوريا، لبنان، الأردن وفلسطين اليوم). أما المجموعة، فقد تفككت وإندمجت مرة أخرى بشكل غريب وشاذ مع عصبة الأنصار. فجند الشام عنوان يدعيه عدد من الكيانات المتطرفة الإسلامية السنية، والتي قد تكون كلها مرتبطة ببعضها أو لا تكون.

أما في لبنان، فقد كانت المجموعة، وحتى تشرين الأول 2004، بقيادة أبو يوسف الشرقية، وهو مسؤول سابق مع فتح- المجلس الثوري، الذي كان برئاسة صبري البنا. ويُعتقد بأنّ المجموعة اليوم هي بقيادة عدد من المقاتلين وليس بقيادة شخص واحد فقط، بمن فيهم عماد ياسين. وقد تم العثور على البنا، المدعو أبو نضال، ميتاً في بغداد قبل الغزو الأميركي للعراق، وزُعِم من قبل السلطات العراقية بأنه قد إنتحر. فهو مُلام من قِبَل جميع الجماعات الفلسطينية تقريباً بسبب علاقاته القوية مع وكالة الإستخبارات الخارجية الإسرائيلية، الموساد.

إنّ الرابط المزعوم لجند الشام مع الزرقاوي ناشئ عن تقارير تقول بأنه قام بترتيب تدريبات للمقاتلين في معسكرات القاعدة. بينما قام الزرقاوي في باكستان، بإتصالات مع قيادة القاعدة لتدريب أشخاص يحملون الجنسية الأردنية. وبدأ عملاؤه (المدعوون جند الشام) بالوصول الى أفغانستان بأعداد كبيرة في العام 1999. وقد تدرب بعض العملاء في معسكر فاروق التابع للقاعدة، حيث تلقوا الدعم الكامل من القاعدة. فجند الشام لا تعتبر فقط غير المسلمين كفاراً، وإنما تعتبر معظم الطوائف الإسلامية كذلك، خاصة الطائفية الشيعية؛ إنّ هدفها تأسيس خلافة إسلامية في منطقة سوريا الكبرى.

أما معارضيهم السلفيين، وبشكل رئيسي عصبة الأنصار، فيقولون بأنّ عددهم لا يتجاوز الـ 60 الى 100 عضو. وإنّ المجموعة، بحسب ما هو مزعوم، هي التي تقف خلف عدد من أعمال العنف في لبنان وسوريا، بما في ذلك جريمة قتل المسؤول الكبير في حزب الله غالب عوالي في تموز 2004 (وقد أكد جند الشام لاحقاً مسؤوليتهم عن الإغتيال، بالرغم أنّ الإجماع العام في لبنان هو أنّ الموساد الإسرائيلي هو الذي كان خلف عملية الإغتيال)، كما كان جند الشام خلف هجمات إرهابية ضد السفارة الأميركية في دمشق في أيلول 2006.

تقييم التهديد

منذ صحوتها في أوائل الثمانينات، كانت العقيدة السلفية القتالية دفاعية الى حد كبير وعكست الشدة الواضحة لظروف الأزمة "*المحلية*". فتاريخياً، كانت مخيمات اللاجئين تعمل كمراتع لدلالات السلفية النضالية الإسلامية المختلفة. فالإجراءات الأمنية المنهجية الصارمة من قِبَل السلطات اللبنانية، والهجوم الأجنبي الواسع ضد لبنان (الإسرائيلي تحديداً)، والصدامات العنيفة مع الجماعات الإسلامية المنافسة، أدت الى إيقاظ وتحريك التيار الجهادي السلفي ككل دفاعاً عن النظام الإسلامي. ومع ذلك، فقد ظلت السلفية القتالية مقيدة بالوقائع المحلية ومرتبطة (إذا كانت كذلك في أي وقت) بالتمرد الإسلامي العالمي للقاعدة بشكل هامشي فقط.

وبالرغم من تعاطفهم مع بعضهم البعض، فإنّ حلفاء القاعدة في لبنان ليسوا موحدين تحت مظلة أو منظمة واحدة. فالجهاديون السلفيون في لبنان لديهم أجندات مختلفة وغير متشابهة، كما أنهم عبارة عن كيانات صغيرة نسبياً، سرية وشبه مستقلة مع هيكليات تنظيمية غير رسمية. وكل كيان من هذه الكيانات مهتم بإستمراريته وبقائه أكثر من إهتمامه بشن جهاد هجومي ضد "الكفار". كما أنّ البعض منقسمون الى فئات سياسية أيضاً. وبشكل هام، كانت هذه الجماعات قد واجهت تحديات تجنيد مستمرة داخل المجتمع السني اللبناني، الذي تعتبر أكثريته الموثوقة والمعتمدة معارضة للإيديولوجية الجهادية السلفية. وعلى كل حال، وبشكل مثير للجدل، لم يعد الآن لهذا الجانب اللطيف والمفيد نسبياً للسلفية النضالية في لبنان صلة وثيقة بالموضوع. فالتغييرات *التكتونية* (البنيوية) التي حدثت في لبنان والمنطقة على مدى الأربع سنوات الماضية قد أثرت بعمق، وربما أعادت تعريف، السلفية القتالية، ليس فقط في لبنان، وإنما في المنطقة ككل. وبمعنى آخر، إنّ التهديد اليوم هو أكثر تعقيداً وإنتشاراً مما كان عليه في الماضي.

وقد وفر الغزو الأميركي للعراق قاعدة عمليات جديدة للإرهاب العالمي، حيث أنه فتح الأبواب للقاعدة في الشرق الأوسط. إذ إنتشر الإرهاب بسرعة داخل العراق وعثر، بسهولة، على مجندين عرب متحمسين لمحاربة القوات الأميركية. وبإنتشارها الى البلدان المجاورة، أصبحت النضالية السلفية مستقرة لتشكل بذلك تهديداً أساسياً لإستقرار البلدان على إمتداد الشرق الأوسط. أما لبنان، الرابط الأضعف في سلسلة البلدان، فلم يكن إستثناءً. فتأثيرات الحرب المنتشرة في العراق، عودة ظهور التوترات السياسية والطائفية في لبنان عقب إنسحاب الجيش السوري في أيار 2005 (وهو حدث بذاته أدى إليه إغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري قبل ذلك بثلاثة أشهر)، حرب 2006 بين إسرائيل وحزب الله، والإدراك السني لتصاعد القوة الشيعية والإيرانية في المنطقة، أعطى حياة جديدة أو معنى للتيار الجهادي السلفي في لبنان. والقصة الآن هي تلك التي لفتح الإسلام، الدلالة الأخيرة على السلفية القتالية في لبنان.

فحتى شهر أيار من هذا العام، كان قلة من الناس قد سمعوا بفتح الإسلام. فهويتها الحقيقية، بالواقع، لا تزال موضع جدل. وبالرغم أنّ بعض المراقبين يشيرون الى روابطها بالقاعدة، فإنّ آخرين، بمن فيهم كبار ضباط الأمن اللبنانيين، يدعون بأنها لا تعدُ الإختراع الأخير لدمشق لدفع المصالح السورية قدماً في لبنان ومنع تأسيس محكمة دولية لمحاكمة قتلة الحريري (فبالرغم من عدم وجود دخان أبيض متصاعد من التحقيق الدولي، فإن سوريا تظل المشتبه به الأول).

وقد ظهرت فتح الإسلام الى السطح في شمال لبنان في العام **2006**، عندما إدعت علناً إنشقاقها عن فتح الإنتفاضة، ومركزها سوريا، والتي هي نفسها منشقة عن منظمة فتح المعروفة، التي كانت بقيادة الراحل ياسر عرفات. إنّ أصول فتح الإسلام فلسطينية، إلا أنّ أكثرية مقاتليها وكوادرها، الذين يبلغ عددهم ما بين 500 الى 900 عضو، يأتون من العراق. ولدى المجموعة مناصرين لبنانيين يُعْتد بهم، والدليل على ذلك عدد اللبنانيين المرتفع الذين تم القبض عليهم وقتلهم في المعركة الجارية مع الجيش اللبناني. ومع طردهم من مخيم البداوي المجاور من قِبَل قوى فلسطينية منافسة، تقيم منظمة فتح الإسلام الآن في مخيم نهر البارد للاجئين الفلسطينيين.

إنّ الإدعاء بأنّ فتح الإسلام ما هي إلا أداة سورية فحسب ليس تبسيطاً للأمور فقط، وإنما هو غير مثمر. فمع وفرة المعلومات التي ظهرت مؤخراً الى السطح، تعتبر إتصالات فتح الإسلام مع القاعدة أمراً ثابتاً وجلياً. وتبرز هنا ثلاث نقاط، هي: أولاً، لقد زُعم تكراراً بأن فتح الإسلام متأثرة بإيديولوجية ونظرة القاعدة العالمية؛ ثانياً، أنها تتقاسم مع القاعدة الأسلوب وطريقة العمل؛ ثالثاً، أن لدى قادتها إتصالات قديمة مع عملاء القاعدة في العراق والعالم أجمع.

إنّ الروابط المحددة لفتح الإسلام مع القاعدة في العراق يمكن تعقبها وصولاً الى تصريح كان "مجلس شورى المجاهدين في العراق" قد أصدره (الذي تتصل أجندته العراقية مع تلك التي لبن لادن، الظواهري وأعضاء آخرين مركزيين في طاقم عمل القاعدة)، والذي إدعى فيه بأنه صدّر إمتيازه الى شمال لبنان تحت مظلة هذه الجماعة الجهادية السلفية الجديدة.

وبحسب تقارير صحفية، فإنّ قائد فتح الإسلام الرئيس هو شاكر العبسي، وهو فلسطيني يصر مسؤولون أردنيون على أنه مرتبط بـأمير القاعدة الراحل في العراق أبو مصعب الزرقاوي. فإلى جانب الزرقاوي، تمت محاكمة العبسي غيابياً في الأردن وصدرت بحقه عقوبة الإعدام بسبب دوره في العام 2002 بذبح عامل مساعدات أميركي. كما ذُكر إسمه أيضاً في مؤامرات إرهابية أخرى تم التخطيط لها في المملكة الهاشمية. وخلال فترة مقتل المسؤول الأميركي، كان العبسي مسجوناً في سوريا بتهم تتعلق بالتخطيط لهجمات إرهابية داخل ذلك البلد. وتم إطلاق سراحه بشكل مشبوه من قِبَل السلطات السورية في الخريف. وقد إنضم شاكر العبسي، المولود عام 1955 من عائلة فلسطينية فقيرة في عين سلطان، وهي قرية قريبة من بلدة أريحا في الضفة الغربية، الى حركة فتح بقيادة عرفات في سن الـ 18 عاماً. وبسبب خوفه من الإعتقال وسط التوترات بين الأردن والحركة الفلسطينية التي سعت للإطاحة بالملك الأردني، فر العبسي الى تونس في أوائل السبعينات. ومن تونس، سافر الى ليبيا، حيث أصبح طياراً محترفاً في سلاح الجو. وحضر دروساً في الطيران في عدد من بلدان أوروبا الشرقية، بما فيها ألمانيا الشرقية، يوغوسلافيا السابقة، والإتحاد السوفياتي. وقبل أشهر من الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982، إلتقى العبسي بفتاة فلسطينية في لبنان وتزوجها. أما اليوم، فهو متورط بمعركة حياة أو موت ضد الجيش اللبناني وبتهديد المدنيين بهجمات في كل البلد.

ورغم دور العبسي، فإنّ فتح الإسلام عبارة عن شبكة سرية مرنة من المقاتلين الجهاديين السلفيين الذين لا يعملون بالضرورة بإتفاق وإنسجام بما يتعلق بالأنشطة ذات الصلة بالجهاد. فقيادة فتح الإسلام وبنيتها التنظيمية العملية، كما أشار إليها حازم الأمين، يمكن تقسيمها الى ثلاث طبقات متمايزة. أولئك الذين قُتلوا حتى الآن، على يد الجيش اللبناني يأتون من الصف الثاني ويميلون لأن يكون لديهم كفاءات قتالية خاصة (السوري محي الدين عبد الحي، أو أبي مدين، قائد الخلية التي كانت خلف الهجوم المزدوج على حافلة في الجبال الواقعة فوق بيروت في آذار؛ واللبناني صدام الحاج ديب الذي إتُهِمَ بالمشاركة في محاولة تفجير قطارين في ألمانيا.

أما الصف الأول، فهو بإدارة ثلاث إيديولوجيين غامضين. أحدهم هو محمد علي عمر (وأسماءه المستعارة أبو حطب وأبو عزام) الذي لا يزال عليه، على خلاف العبسي، أن يظهر نفسه علناً والذي فر، على الأرجح، خارج البلاد. أما الصف الثالث، فيشمل أعداداً كبيرة من المقاتلين القادمين من العراق (عدد منهم من اليمنيين والسعوديين)، الذين كانوا يعملون كمسهّلين لوجستيين، خبراء تقنيين ومجندين في شمال لبنان. أما الخلايا النائمة المرتبطة بفتح الإسلام، فمنتشرة عبر الشمال، أما أكثرها بروزاً ففي مناطق أبو سمرا في طرابلس، عكار والكورة.

ويزعم الناطقون بإسم فتح الإسلام بأنّ هدف المجموعة الوحيد هو حماية سنة لبنان وإصلاح مخيمات اللاجئين الفلسطينيين بحسب الطريقة الإسلامية. إنّ طموحهم الحقيقي على كل حال، كطموح القاعدة، هو إنشاء قوة تمرد إسلامية لتحرير القدس وأراضٍ إسلامية أخرى من الكفار. فالطريق الى القدس، كما كتب روبرت فيسك، بشكل صحيح، تمر من مدينة طرابلس.

إنّ طبيعة الحركة الجهادية السلفية نفسها في لبنان تلعب ضد قدرتها على شن تمرد متين مستمر ومميت. فالجيش اللبناني ومخابراته تعامل حتى الآن مع تفجيرات فتح الإسلام الشديدة، مانعاً إياها من محاولة تمتين وإعادة جمع كامل الحركة الجهادية السلفية تحت مظلتها. وهذا يطرح حتماً بأنّ التهديد الأمني الذي تشكله هذه الفئات على لبنان ليس تافهاً. وكما وُثِقَ سابقاً، فإنّ تاريخ الإرهاب والعنف السياسي كما تترجمه الفئات الجهادية السلفية في لبنان ضد أهداف لبنانية وأمنية، هو بذاته سبباً للقلق ومؤشراً عن الإمكانيات والقدرات الإرهابية لهؤلاء الفاعلين. فبدون أن يعيش المرء في في معقل جهادي سلفي مشبوه لفترة معتبرة من الوقت، ويقوم ببحث في هذا الحقل بصبر وأناة، فإنه من المستحيل تقريباً تقديم رواية موضوعية عن حجم التيار الجهادي السلفي الكامل في لبنان. ومع ذلك، وعلى عكس التقارير المنشورة من قِبَل وكالات إستخبارية أجنبية، فإنّ عدد الجهاديين السلفيين المحليين والأجانب في لبنان، بحسب مصادر مستقلة (رغم أنه ليس موثوقاً بها بالكامل، بالضرورة) في أقسام مخابرات قوى الأمن الداخلي اللبناني والجيش اللبناني ليس بالآلاف بل بالمئات، وبأنّ هؤلاء حتى، كما عُرض سابقاً، منقسمون الى فئات.

وفي هذه الأثناء، وبرغم تصريحات أخيرة أدلى بها إيديولوجيون في القاعدة تحدد فائدة إستخدام لبنان كساحة معركة أخرى ضد الغرب، فإنّ على " مركزية القاعدة" أن تعلن لبنان، بشكل لا لبس فيه، مسرحاً لعمليات كبرى. فبالنسبة لكبار قيادة القاعدة، ورغم المكاسب العديدة التي تقدمها الساحة اللبنانية للتمرد الإسلامي في دهاليز الشرق الأوسط (أكثرها أهمية قرب لبنان الجغرافي من المسرح الإسرائيلي- الفلسطيني عموماً، والأهمية الروحية للقدس تحديداً)، فإنّ لبنان ليس أولوية حالياً، إنما العراق كذلك. وقدم المحلل الأردني بسام البدّارين إطلالة على التفكير الإستراتيجي لقيادة القاعدة، حيث لا يشكل لبنان إلا جزءاً هامشياً فيه. إذ يقوم البدّارين بإستكشاف ما يبدو إستراتيجية متجانسة طويلة الأمد بإعتماده على كتابات منوعة ومنسقة لأحد "العقول الإستراتيجية" لقيادة القاعدة، هو محمد إبراهيم مكاوي. فالوثيقة المكتوبة والمنشورة على الإنترنت من قِبَل مكاوي بعنوان "إستراتيجية القاعدة حتى العام **2020**" تُظهر بأنّ القاعدة قد سبق وبدأت بخططها الأساسية لمواصلة حملة جهاد طويلة الأمد مؤلفة من **5** مراحل متمايزة لتخليص الأمة من كل أشكال القمع.

ففي المرحلة الأولى، هدفت القاعدة الى إستثارة ما يصفه مكاوي بـ "الفيل الأميركي الضخم" الغازي للأراضي الإسلامية. وكانت المرحلة الثانية من الخطة إعادة إيقاظ "الفيل العملاق" الآخر- الأمة نفسها- بواسطة جلب أعداد كبيرة من الجنود الأميركيين الى الأراضي الإسلامية، إثارة غضب الأمة، وإستثارة مواجهة على مستوى كامل. المرحلة الثالة هي توسيع الصراع على إمتداد المنطقة والدخول مع الولايات المتّحدة بحرب إستنزاف طويلة. ويشمل توسعاً كهذا فتح مثلث الإرهاب الجهادي، بدءاً من أفغانستان، مروراً بإيران وجنوب العراق وإنتهاءاً بجنوب تركيا، جنوب لبنان وسوريا. المرحلة الرابعة هو أن تصبح القاعدة شبكة عالمية من خلال التأثير على التغييرات التنظيمية التي ستُخرجها من نطاق القوى الأمنية الدولية أكثر.

وقد تناول عدد من محللي القاعدة حول العالم قدرات التخطيط الإستراتيجي للقاعدة، بمن فيهم عبد الباري عطوان، رئيس تحرير صحيفة القدس العربي العربية، ومركزها لندن. ففي كتابه "تاريخ القاعدة السري"، يكتب عطوان، الذي أجرى شخصياً مقابلة مع أسامة بن لادن في العام **1996**، قائلاً:

"إنّ ما يحفظ القاعدة ويجعلها، بإعتقادي، ناجحة للغاية في مصطلحاتها الخاصة بها، هو أنها طورت بكد وإجتهاد إستراتيجية طويلة الأمد على أساس الخبرة، البحث والملاحظة، التي تعتبر ملتزمة بها بشدة. هذه الإستراتيجية ستكون المبدأ الرئيسي الموجه بالنسبة لمستقبل القاعدة".

ومع الموقع القيادي لأيمن الظواهري داخل القاعدة، فإنّ الرسالتين اللتين أصدرهما في **20** كانون الأول **2006** و**13** شباط **2007**، واللتان توجه بهما، بإختصار، الى موضوع لبنان وقرار مجلس الأمن الدولي رقم **1701**، تستحقان البحث والإستكشاف. فحقيقة أنّ الظواهري، وليس بن لادن، هو الذي أصدر التصريحين لا يجب أن يمر مروراً عابراً من دون ملاحظة. فبرغم أنه مُنظِّم فعال وعسكري تكتيكي، فإنّ الظواهري يفتقر الى المكانة والسحر اللذان يمتلكهما من هو أعلى منه. فبن لادن هو الصورة والشخصية المركزية الحاشدة للمؤيدين في حرب الجهاديين ضد الكفار في العالم أجمع. فالتصريحات الصادرة عن بن لادن والمبادئ التي ينطق بها تجد صداها لدى مسلمي العالم. فهو مرحب به في معظم المجتمعات الإسلامية بصفته رمز المقاومة ضد أعداء الإسلام. وهذا لا يعني بأنّ أي نداء للجهاد صادر عن بن لادن مُطاع تلقائياً ويتم العمل عليه. فوجود علاقة سببية (إرتباط وترابط) بين قادة القاعدة المنادين بالهجمات و بين تنفيذها الحتمي أمر مؤكد.

أما ما هو غير مؤكد، على كل حال، فهو مدى قوة هذه العلاقة السببية وتلقائيتها. فمن المستحيل معرفة، وبدقة، لماذا يعمل حلفاء القاعدة بشكل إنتقائي فقط بما يتعلق بدعوات قادتهم للجهاد. ومن السليم الإفتراض بأنّ إجابة دعوة بن لادن (أو الظواهري) أمر ممكن ومحتمل، الى حد كبير، بما يتعلق بالبيئة المحلية. فإذا ما سمحت الظروف، فرضاً، يُشَن الجهاد ضد "الكفار". وإذا كانت الظروف المحلية غير مؤاتية، فإنّ الجهاد مؤجل (وأحياناً الى ما لانهاية). فبعد كل شيء، إنّ شن عملية إرهابية تملك فرصة جيدة بالنجاح أمر يتطلب عملاً ميدانياً

مكثفاً، بما في ذلك جمع المعلومات الإستخبارية، الرصد والمراقبة، التجنيد، التمويل والتدريب، والتي تعتبر كلها أموراص صعبة التنفيذ للغاية بظل الظروف الأمنية المشددة من قِبَل السلطات الرسمية.

ربما تكون الطريقة الجيدة لشرح العلاقة غير المركزية بين القاعدة وحلفائها حول العالم هي بإلقاء بعض الضوء أولاً على تعريف القاعدة. كيف تناضل القاعدة وكيف تعمل عموماً؟

كثيرة هي تعريفات القاعدة التي ظهرت على مدى السنوات في أدب الإرهاب. ومع وضع الإختلافات جانباً، يُعتقد، وبشكل شائع، بأنّ القاعدة هي هذه المنظمة الإ{هابية المؤسسة قبل عقد من الزمن من قبل متطرف ديني غني سعودي، والتي نمت لتصبح شبكة قوية بشكل خيالي، تتألف من آلاف الرجال المدربين والمحفزين، والتي تراقب وتنتظر في كل بلد ومستعدة لتنفيذ أوامر قائدها أسامة بن دلان. إنّ هذه الصورة للقاعدة مبسطة وخاطئة بشدة. فإعتبار القاعدة منظمة متجانسة ومتشابكة بشدة وذات إيديولوجية محددة وفريق عمل ظهرت باكراً في اواخر الثمانينات، فإنّ ذلك يعني إساءة فهم ليس طبيعتها الحقيقية فقط، وإنما طبيعتها الراديكالية الإسلامية آنذاك واليوم. فالشروط والعناصر الديناميكية والمحلية لم يُعتبر حركة واسعة متجذرة بتوجهات تاريخية بالغة التعقيد مفقودة. هذا الإنقسام المكون من ثلاثة أجزاء، كما قدمه جايسون بروك، مفيد في تحديد القاعدة وفهم طبيعتها وطبيعة النضالية الإسلامية الحديثة.

العنصر الأول هو "مركزية القاعدة" المؤلفة من مساعدي، مستشاري، ومسلحي بن لادن البارزين الأُول. بمعنى آخر، إنها قيادة القاعدة. العنصر الثاني يشمل أعداد الجماعات الإسلامية المسلحة الأخرى الكبيرة حول العالم، والتي يُرجع اليها غالباً بعبارة "شبكة متحررة من الشبكات" ، تتبع إيديولوجية جهادية سلفية برغم أنها ذلك قد لا يكون لديها بالضرورة إتصالات مع " مركزية القاعدة". فالمجموعات التي تم درسها في هذه المقالة، بما فيها عصبة الأنصار، جند الشام ومجموعة الضنية المنحلتان الآن، والعناصر المارقة (المتحولة للجهادية السلفية) داخل حركة التوحيد الإسلامي والجماعة الإسلامية، هي أمثلة عن أفراد وجماعات كهذه. والعنصر الثالث هي إيديولوجية، فكرة ونظرة القاعدة العالمية ومن يشترك معها في ذلك. فبحسب مصطلحات واسعة جديدة، إنهم أولئك الشبان المسلحين الذين يقاسمون بن لادن و "مركزية القاعدة" أفكاره وأهدافه الأساسية، والمحفزون بشكل كافٍ لتكريس قسم مهم ومعتبر من حياتهم وطاقاتهم للوصول الى أقصى غايات وأهداف النضالية الإسلامية. وفي لبنان، من غير المبالغ فيه القول بأنّ أفراد المجتمع السني غير المتاثرين والمنتمين للطبقات الوسطى والفقيرة تحركهم جميعاً، وبشكل كاف، إيديولوجية أسامة بن لادن، وبذلك فإنهم مجندين محتملين بالنسبة للقاعدة.

وفي لبنان، وبرغم أنّ الكيانات الجهادية السلفية اللبنانية قد ترى بأسامة بن لادن شخصية بطولية ترمز لنضالهم المشترك، فإنّ لديهم قادتهم الخاصين بهم، كما لديهم أجندات دينية محدودة النطاق بعمق، غالباً؛ فهم لا يريدون الشعور بأنهم مجبرين، بالضرورة، على إخضاع أنفسهم لبن لادن أو الظواهري. بالإضافة الى ذلك، ليس لدى الجهاديين السلفيين في لبنان عدو واحد وإنما عدة أعداء– الحكومة اللبنانية، إسرائيل، الجماعات الشيعية والمسيحية واليونيفيل. ومع مواردهم المحدودة، تُعتبر مسألة إنتقاء وتحديد الأهداف الأولية أساسية بالنسبة لمكانتهم الإستراتيجية.

كما تجدر الإشارة الى أنّ مشهد الجهادية السلفية في لبنان لا يزال عليه إنتاج زعيم موحد مكان الزرقاوي الراحل في العراق. وبالرغم أنه كان متداولاً لدى مصادر لبنانية بأنّ أمير بلاد الشام (الذي يعمل تحت إسم أبو رشد الميقاتي)، موجود اليوم في بيشاور اليوم، هو لبناني حارب في العراق ولديه علاقات مكثفة مع الفئات السلفية الجهادية العاملة في طرابلس وعين الحلوة، فإنّ الدليل الحاسم والقاطع بهذا الشأن لا يزال متعذراً.

أخيراً، من الصعوبة للغاية إجراء تحليل بطريقة نافذة ودقيقة الفاعلين المتعددين الذين يسلحون ويدعمون مالياً الجماعات الجهادية السلفية المختلفة في لبنان. فمعظم الأسلحة التي تدخل مخيمات اللاجئين الفلسطينيين هي من أصل سوري. كما يأتي التمويل من الخليج العربي أيضاً، حيث الأفراد الأغنياء ذوي العلاقات الوثيقة بالحكومة يسعون الى تشكيل المحيط الإستراتيجي والى توازن قوى (مجتمعي) في المنطقة.

العامل السوري

إنّ العامل الهام الآخر الذي يجب أن يشتمل عليه أي تقييم لخطر الجهادية السلفية في لبنان هو الدور الذي تعتبر سوريا قادرة على لعبه لجهة مساعدتها هذه الظاهرة، بشكل غير مباشر، على النمو والعمل على الأرض اللبنانية. إذ لطالما كان دعم الجماعات الفلسطينية واللبنانية المسلحة جزءاً مكملاً للسياسة الخارجية السورية. ويشرح دانييل بايمن بدقة ذلك الجانب من السياسة السورية:

"إنّ دعم سوريا مختلف ومعقد، ما يعكس رغبة دمشق بإستغلال الجماعات الإرهابية وكذلك الحد منهم... فسوريا تمثل، وبطرق عديدة، الراعي الخصم للإرهاب، وذلك بمساعدتها جماعات محددة على أن تصبح قوية، ولكن بالعمل أيضاً على التحكم بها وإخضاع قضيتها الكاملة للأهداف المحلية والجيوسياسية السورية".

وكانت سوريا قد دعمت سلسلة واسعة من الجماعات الفلسطينية المسلحة على مدى السنوات. إنّ مساندة كهذه ناشئة من خليط من الهواجس الإيديولوجية، المحلية والإستراتيجية والإعتبارات. وفي التسعينات والثمانينات، عملت دمشق عن قرب مع جماعات فلسطينية عديدة، موجهة عملياتها ومقدمة لها التمويل، التدريب والمساعدات التنظيمية. فجماعات كحماس، الجهاد الإسلامي الفلسطيني، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين– القيادة العامة، مقيمة كلها في سوريا وتحتفظ عدة جماعات بمراكز قياداتها هناك. فالملاذ في سوريا يتيح للمجموعات تنسيق أنشطتها، تنظيم نفسها والعمل أيضاً بقليل من التدخل، رغم أنّ دمشق نفسها غالباً ما لا تكون منخرطة مباشرة في هذه الأنشطة.

أما في لبنان، فتستخدم سوريا تأثيرها القديم لدعم عدد من الجماعات اللبنانية والفلسطينية المسلحة بطريقة غير مباشرة، بما في ذلك الحزب القومي السوري الإجتماعي، حماس، فتح، الجهاد الإسلامي الفلسطيني وفئات أخرى تعمل من داخل مخيمات اللاجئين الفلسطينيين الشمالية والجنوبية. وبرعاية سورية غالباً، إنخرطت هذه الجماعات بنشاط عسكري في لبنان للدفع بأهداف سياسة دمشق الخارجية (وأحياناً الداخلية) قدماً. إنّ دعم سوريا غير المباشر يغطي كل الأراضي اللبنانية، ويمتد من المناطق الشمالية الى الجنوبية ويضم كل مخيمات اللاجئين الفلسطينيين.

لقد كانت تلك سياسة ثانية لسوريا، أي أن تقسّم، بشكل مثير للجدل، كل الجماعات المسلحة التي تدعمها، حيث أنّ هذا الأمر يمكنها من التحكم بها بفعالية ومن توجيه عقيدتها القتالية. وهذا لا يعني بأنّ سوريا تسيطر على كل الجماعات اللبنانية والفلسطينية في لبنان. فبعض هذه الجماعات، رغم قلتها، كانت قادرة على المحافظة على إستقلاليتها العملانية وعلى وضع مسافة بينها وبين النظام السوري. فهناك آخرون، مثل الجماعات الجهادية السلفية، ممن يعارضون سوريا، ويعتبرون النظام العلوي في دمشق غير شرعي ومخادع، بسبب قمعه ومحاربته الإخوان المسلمين السوريين الإسلاميين منذ العام 1976.

فسوريا ليست بحاجة لفعل الكثير للسماح للقاعدة بالإزدهار والعمل من لبنان. فالشروط المسبقة لحتمية كهذه، كما ثبت سابقاً، موجودة أصلاً. فكل ما على دمشق أن تفعله هو التراجع عن إعاقة نقل مقاتلين إضافيين من القاعدة وكذلك منع عمليات التمويل الإرهابية والتجهيزات من العراق وسوريا الى داخل لبنان، وهو أمر لم تكن تعاني من مشاكل كبيرة في تنفيذه على مدى العامين الماضيَيْن. إنّ النظام السوري يدرك أخطار اللعبة التي يلعبها بحسب ما هو مزعوم (والمتهم أيضاً بلعبه بشكل أكثر صراحة في العراق عن طريق تقديم سلسلة من الدعم للمتمردين العراقيين)، بسبب العدواة الإيديولوجية والسياسية القوية بين دمشق العلمانية والحركات الإسلامية المسلحة والتاريخ

الدموي الذي تقاسمتاه منذ السبعينات. وعلى كل حال، كانت دمشق قد أظهرت إستعدادها القبول بالمخاطر بسبب المكاسب النسبية التي حصلت عليها من سياسات كهذه على مدى السنوات، لذلك فليس من التضليل القول بأنه مع غياب الحوار الجدي مع سوريا، فإن دمشق ستستمر بهكذا مسار في المستقبل المنظور.

الطليعة في حرب: حزب الله والقاعدة

هناك شك عام بين أوساط أقسام جماعة الإستخبارات في واشنطن بأنّ حزب الله والقاعدة، برغم إختلافاتهما، قد تعاونا في الماضي وبأنهما مستمران بالتعاون بما يتعلق بالأنشطة ذات الصلة بالجهاد ضد الولايات المتّحدة ومصالحها في الداخل والخارج.

ففي حزيران 2004، لم تجد لجنة 9/11 روابط عملانية بين القاعدة والعراق، لكنها إستنتجت، على كل حال، بأنّ شبكة بن لادن الإرهابية العالمية لديها إتصالات منذ أمد بعيد مع إيران وحزب الله. وكانت العلاقة المزعومة بين القاعدة وحزب الله قد خرجت الى الضوء في العام 2000 عندما ذُكر في أحد التقارير بأن عماد مغنية، وهو إرهابي دولي يُعتقد على نطاق واسع بأنه مرتبط بحزب الله، قد إجتمع مع بن لادن في السودان للتخطيط لعمليات تفجير السفارات الأميركية في أفريقيا. ومن دون الوصول الى معلومات إستخبارية موثوقة، فإنّ الزعم المذكور آنفاً ومزاعم أخرى لا يمكن، وببساطة، تكذيبها بشكل مستقل. حيث أنّ إمكانية أن يكون عضو أو أكثر من أعضاء حزب الله المزعومين قد إجتمعوا في فترات حياتهم مع قائد أو مقاتل ينتمي الى شبكة القاعدة العالمية هو إحتمال لا يمكن إنكاره.

إنّ الفرضية بأنّ لدى حزب الله والقاعدة علاقة عملانية أو إستراتيجية صلبة وتعاون حول المسائل المتصلة بالجهاد العالمي يمكن الإعتراض عليها على اساس الأسباب الأربع التالية:

السبب الأول، الإختلافات الدينية المتناقضة: فالقاعدة تتبع إيديولوجية ثنوية ترى المسلمين الشيعة أدنى من أدنى طبقة، حتى أنهم أسوأ من اليهود و "الصليبيين". فبالنسبة للقاعدة، يعتبر الشيعة روافض ويجب محاربتهم مثل كل الكفار. وقبل أسبوع من مقتله بضربة جوية أميركية، أصدر زعيم القاعدة في العراق أبو مصعب الزرقاوي تصريحاً نارياً يتهم فيه حزب الله بالعمل كمخفف صدمات حامي لإسرائيل. أما حزب الله، فقد تحفظ، عموماً، في تعليقاته على القضايا الإسلامية الداخلية، والذي كان أول تعليق له على القاعدة وإيديولوجيتها بعد هجمات 9/11 مباشرة، عندما وصفها حسن نصر الله، أمين عام الحزب، "ككيان عالق في العصور الوسطى يترع الى قتل المسلمين الأبرياء". وفي حزيران 2006، أجاب نواف الموسوي، مدير مكتب العلاقات الخارجية لحزب الله، على مزاعم الزرقاوي بإتهامه إياه بأنه أداة في يد الولايات المتّحدة وإسرائيل ضد جماعات المقاومة العربية وبإعتبار أعماله أعمالاً إجرامية المقصود بها إثارة حروب أهلية وقتال طائفي فقط.

الثاني، الإستراتيجيات السياسية المتضاربة: على عكس القاعدة، تقبل حزب الله العملية السلمية وكان منخرطاً بشكل مشروع في المشاركة والمنافسة السياسية في لبنان (رغم طبيعة جناحه البرلماني المثير للجندل طبعاً) منذ الإنتخابات الأولى للبلاد ما بعد الحرب الأهلية في العام 1992. وبالرغم أنّ القاعدة تميل الى تدمير الأنظمة العربية وحلفائها وإستبدالها بأنظمة حكم على شاكلة الطالبان، فإنّ حزب الله يهدف للعمل ضمن النظام اللبناني. وبقدر ما هو ثوري، فإنّ حزب الله يفاوض ويصنع الصفقات مع أعدائه (والدليل على ذلك عمليات تبادل الأسرى مع إسرائيل على مدى العقد الأخير). وبالإجمال، إنّ حزب الله، على خلاف القاعدة، يمكن الحوار معه.

الثالث، الإختلافات الإستراتيجية: من الصعب تصور أية علاقة إستراتيجية بين القاعدة وحزب الله عندما يكون الأول في حرب، رسمياً، مع المحور الإستراتيجي للأخير المؤلف من إيران وسوريا. إذ كان عدد من قادة القاعدة وكبار إيديولوجييهم قد

أصدروا تصريحات على مدى السنوات يصفون فيها حزب الله بأنه لا يعدو كونه "عميلاً للإمبراطورية الصفوية" (وذلك نسبة لإيران)، ومفسرين أجندة الجماعة الشيعية على أنّ المقصود منها تدمير الإسلام فقط وإعادة إحياء وبسط الحكم الإمبراطوري الفارسي على الشرق الأوسط، والعالم في النهاية.

الرابع، حالة الحرب الملموسة بين الكيانيَيْن: لقد برهنت القاعدة عن كراهيتها لحزب الله على مدى السنوات بشنها عدد من الهجمات ضد الجماعة الشيعية. ففي تموز **2004**، إدعى جند الشام مسؤوليته عن قتل المسؤول الكبير في حزب الله، غالب عوالي. وفي كانون الأول **2005**، وفي محاولة للزج بحزب الله بهجوم حصل ضد إسرائيل، أطلق **4** مقاتلين من القاعدة **10** صواريخ غراد من جنوب لبنان على كريات شمونة في شمال إسرائيل. أخيراً، أحبطت السلطات اللبنانية، في نيسان **2006**، مؤامرة لشبكة جهادية سلفية محلية لإغتيال حسن نصر الله.

إنّ جمع القاعدة وحزب الله من دون تمييز في نفس السلة لن يؤدي سوى الى إلحاق الضرر بحملة مكافحة الإرهاب العالمية. فكل كيان من الكيانين يشكّل مجموعة متمايزة من التحديات بالنسبة للولايات المتّحدة والغرب. إنّ تحديد إختلافاتهم يخدم الحرب العالمية على الإرهاب بشكل أفضل من خلق شعور بوحدة الصف والتكاتف بينهما.

مكافحة التهديد: الوصفات السياسية

إنّ العثور على حل طويل الأمد لتهديد الجهادية السلفية في لبنان سيتطلب في النهاية فهماً حذراً لأسبابه المتجذرة المعقدة. وكما يمكن للعبارة أن تبدو وكأنها كليشيه، فإنه ليس هناك من حل عسكري لوجود القاعدة المتنامي في لبنان. فعلاج لبنان الشافي وترياقه الأكثر فعالية وإستراتيجية ضد التطرف والإيديولوجية المسلحة يشمل رؤية إجتماعية– إقتصادية متأصلة في سياسات التطوير المتوازن. فمصطلحات مثل التوظيف، التعليم، الأمن الإقتصادي، العدالة الإجتماعية والإنعاش، تُعتبر مصطلحات مباشرة مجهزة لمحاربة الجهادية السلفية في لبنان بشكل أفضل من تلك المتعلقة بمكافحة الإرهاب، ضرب رأس العنف أو البحث والتدمير.

وعلى الدولة اللبنانية أن تتعلم من أخطائها الماضية وأن تضم مناطق غير مطورة، تم درسها سابقاً، ومناطق أخرى في عملية إعادة الإعمار الكبرى ما بعد الحرب التي تتم حالياً. إنّ التركيز حصرياً على إعادة بناء العاصمة على حساب مناطق أخرى قد أثبتت بأنها سياسة مدمرة على مدى السنوات. إن بناء قدرة الدولة ووجودها الصلب في مناطق محرومة نسبياً في البلد يعتبر أمراً أساسياً وجوهرياً. بالإضافة الى ذلك، يجب أن تحرم القاعدة من الملاذ الآمن لها في لبنان. وتتضمن ملاذات كهذه عدداً من المدن والبلدات الشمالية والجنوبية، ويصدف أنها تتمركز حول مخيمات اللاجئين الفلسطينيين المحرومة والمنتشرة عبر البلاد. هذا تحدي ضخم. إنّ الوجود الفلسطيني المسلح داخل وخارج مخيمات اللاجئين في لبنان سيطرح نفسه، على الأرجح، كقضية أمنية معقدة جداً تواجه الدولة اللبنانية في المستقبل المنظور. إنّ قضية السلاح الفلسطيني هي، كما وضعها، وبشكل صحيح، وزير الداخلية اللبناني الأسبق أحمد فتفت: "الفيل في غرفة الجلوس اللبنانية".

هناك إجماع ظاهر اليوم بين الفئات السياسية اللبنانية على رفض حمل الفلسطينيين للسلاح خارج المخيمات ومراقبة تنظيم السلاح داخل المخيمات. أما ما إذا كان سيظهر حوار حقيقي وشفاف وكذلك حل لقضية السلاح الفلسطيني الحساسة من التطورات الأخيرة– كالحوار الجاري بين الحكومة اللبنانية والفلسطينيين– فأمر موضع تساؤل في هذه اللحظة. ومع ذلك، فإنّ الحقيقة المجردة بأنّ النقاش اللبناني– الفلسطيني قد بُدأ يجب إعتباره خطوة بالإتجاه الصحيح، الأمر الذي يمكن أن يقود بعد ذلك الى مفاوضات بشأن التخفيف من معاناة الشعب الفلسطيني بتوفير الحاجات والحريات المدنية الأساسية لهم. إنّ مشكلة اللاجئين الفلسطينيين في لبنان (وبلدان أخرى في المنطقة) مرتبطة، وهذا واضح، بالصراع الإسرائيلي– الفلسطيني الأوسع بشكل جوهري وأساسي . وبذلك، فإنّ تسوية دائمة وشاملة

للصراع الإسرائيلي– الفلسطيني فقط هو ما سيجلب حلاً محدداً ونهائياً لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين في دلالاتها وظواهرها المتمايزة في بلدان مختلفة في الشرق الأوسط.

وأخيراً، وبسبب دورهم الهام داخل مجموعات المؤيدين والأنصار المسلمين السنة في لبنان وقدرتهم على الوصول إليهم، على الدولة اللبنانية في النهاية أن تساعد المؤسسات والفاعلين الإسلاميين السنة المعتدلين في جهودهم لإقناع العناصر المتطرفة بنبذ العقيدة القتالية وإعتناق مبدأ النشاط الإسلامي السلمي. فقيادة القاعدة غالباً جداً ما تجند وتعتمد على الدعم السري ، كما تعتمد على الأحزاب السياسية الشرعية لجعل المسلمين راديكاليين والعمل على تحريكهم وتجنيدهم. أما جبهة العمل الإسلامي فإبتكار آخر تماماً، وهي لم تصل بعد الى النضوج السياسي والتنظيمي (برغم أنّ هيئاتها مؤسسّة وقديمة)؛ فهي لا تزال عبارة عن تحالف مفكك (برغم إستخدام مصطلح المظلة) فأعضاؤها ليسوا منسجمين ومتفقين، بالضرورة، حول كل جوانب العمل والنشاط الإسلامي. ولإستغلال خلافات كامنة كهذه، فإنّ بإمكان القاعدة إختراق المنظمة– المظلة (وقد سبق وحاولت ذلك فعلاً) والفوز بمجندين لها، وهي نتيجة يجب على الدولة اللبنانية أن تتجنبها بشكل جدي.

وللقيام بقفزة في عملية محاربة القاعدة في لبنان، يجب أخذ التوصيات التالية للمدى القصير بالإعتبار من قِبَل الحكومة اللبنانية وحلفائها المحليين، بمن فيهم الولايات المتّحدة:

- إشراك سوريا– في الوقت الذي يُحافظ فيه على سيادة وإستقلال لبنان– بقصد تأمين تعاونها الإستخباري حول تهريب السلاح والبشر على طول الحدود السورية– اللبنانية: فكما نوقِش سابقاً، فإنّ مشكلة القاعدة في لبنان ليست سوريا سببها، وهذا بالكاد يعني أنّ سوريا بريئة مما يحدث في شمال لبنان. إنّ حلاً طويل الأمد لوجود القاعدة المتنامي في لبنان لا يمكن الحصول عليه من دون تعاون سوريا. وكانت الحكومة السورية قد قالت مؤخراً بأنّ لديها " معلومات حقيقية وصلبة" حول وجود خلايا القاعدة النائمة في لبنان وبأنها مستعدة لتقاسمها مع الولايات المتّحدة. وقد ذكر كلام منسوب للوزير السوري عمر سالم يقول فيه بأنّ حكومته مستعدة للتوسط في مناقشات حول العراق بين الولايات المتّحدة وإيران. أما في هذه المرحلة، فمن المستحيل تقريباً الحكم على مصداقية المزاعم السورية. وقد فسر بعض المعلقين عرض سوريا كتهديد أو كتذكير من قِبَل دمشق بأنها تحمل مفتاح الإستقرار في لبنان، وبأنها لا تزال اللاعب الأساسي في المنطقة القادر على كبح العقيدة الإسلامية القتالية. هناك مقدار كافٍ من الصحة في تقييمات كهذه. ومع ذلك، ومع الإفتراض بأنّ عرض سوريا صالح، فإنّ السؤال هو ماذا ستطلب دمشق مقابل تعاونها حول مطالب حيوية كهذه. فسوريا سبق وأحبطت الإقتراح الداعي الى إمكانية نشر قوات حفظ السلام الدولية على طول حدودها مع لبنان. أما في النهاية، وعندما يتعلق الأمر بالفخر والعزة وبدول متحدية مثل سوريا، فإنّ التحدي هو العثور على خليط صحيح من الحوافز والعقوبات التي ستقنع وتغري بالتعاون.
- تطوير عمليات الرصد والمراقبة حول المخيمات الفلسطينية: رغم أنّ ذلك يجب أن يكون بذكاء ومن دون إستفزاز. إذ سيبدو منطقياً بالنسبة للجماعة الجهادية السلفية التخطيط لهجمات إرهابية مستقبلية في منطقة حيث لا وجود كبير لمؤسسات فرض القانون اللبنانية أو حيث لا تستطيع الدخول. فعين الحلوة، على سبيل المثال، تشكل المثال الممتاز برغم أنها ليست الموقع الوحيد للتخطيط لعملية إرهابية. وبالرغم أنّ من التهور في الوقت الحاضر، بالنسبة للدولة، جعل الجيش اللبناني يقوم بالدخول الى عمق المخيمات وتحديد نقاط أمنية عشوائية، فإنّ عليها، وبشكل بديل، أن تدعم الأمن حول عين الحلوة ومخيمي نهر البارد والبداوي الشماليين بوضع كاميرات مراقبة قريبة، بالإضافة الى تجهيزات مراقبة أخرى حديثة. ويبدو بأن الجيش اللبناني يتحرك الآن في توجه كهذا كما حدث في 30 تشرين الأول 2006، عندما دخل مسؤول رسمي رفيع في الجيش اللبناني الى عين الحلوة لأول مرة منذ

حوالي 30 عاماً، للإجتماع بممثلين من مختلف الفئات الفلسطينية (مع مساعدة لوجستية من ممثل حماس في لبنان أسامة حمدان)، بمن فيهم عصبة الأنصار، لمناقشة إنتشار الجيش اللبناني في حي التعمير، الموجود على أطراف عين الحلوة. وبعد يومين من المفاوضات، إنتشر الجيش اللبناني، بحذر، في تعمير عين الحلوة مستخدماً أكثر من 20 من حاملات الجند المدرعة و 500 جندي مع مدفعية ثقيلة الموجودة الآن على مسافة جغرافية قريبة (عشرات الأمتار) من مخيم الطوارئ، حيث تقيم عصبة الأنصار.

- السعي للحصول على تعاون حزب الله، الذي تعتبر ذخيرته البشرية والإستخبارية حيوية لضمان أمن لبنان واليونيفيل: وبقدر ما قد يبدو هذا الأمر غريباً وغير منطقي بالنسبة للمسؤولين الغربيين والأميركيين، فإنه سيكون من الغباء إنكار حقيقة أنّ ما يمتلكه حزب الله من قيمة بشرية وإستخبارية تقنية منظمة بشكل جيد وصحيح للمساعدة بكبح إنتشار السلفية الجهادية في المناطق الجنوبية وإحتوائها. وأثناء كتابة هذه المقالة، فإنّ البيئة السياسية والإستقطابية بشدة في بيروت وعلاقة المواجهة الناجمة عن ذلك بين حزب الله وحلفائه في المعارضة من جهة، والإئتلاف الحاكم الموالي (بقيادة رئيس الوزراء فؤاد السنيورة والأكثرية البرلمانية بقيادة سعد الحريري، إبن رئيس الوزراء الأسبق المغتال رفيق الحريري) من جهة أخرى، تعمل، وبشكل واضح، ضد أية جهود متبادلة بشأن تكوين مفهوم بخصوص جبهة أمنية موحدة بهدف إنهاء خطر الجهادية السلفية المحلية.
- تمويل ميزانية دائرة الإستخبارات العسكرية اللبنانية بشكل مناسب: على لبنان ما بعد سوريا أن يشرع بعملية جدية ومقدسة لإعادة هيكلة القطاع الأمني. فعلى مدى حوالي 15 عاماً ما بعد الحرب، عمل القطاع الأمني اللبناني المتحكّم به سورياً كعائق بنيوي أمام الحرية اللبنانية والتطور البشري. فالتدخل السوري أجبر الدولة اللبنانية على تهميش جميع القوى المحلية إستراتيجياً، التي كانت قادرة على التغيير أو النفوذ. وبالواقع، لقد عانى المجتمع السياسي اللبناني، خلال الوجود السوري، من النشاط القمعي، التهديد والتخويف وإنتهاكات حقوق الإنسان. إنّ المحافظة على وحدة، مصداقية وفعالية الأجهزة الأمنية اللبنانية أمر ذات أهمية أساسية لأمن وإستقرار لبنان المستقبلي. وحتى الآن،كانت إجراءات الحكومة اللبنانية العملانية للمدى القصير بخصوص تعزيز الأمن إجراءات قاصرة وناقصة، هذا في أفضل الأحوال، وبذلك، لم تفشل هذه الإجراءات بمنع حدوث إغتيالات وحوادث أمنية إضافية في البلاد فقط، وإنما قصرت في عملية مقاربة الإصلاح الأمني الواسع.على كل حال، وبسبب الثقل السياسي المُلقى على مهمة إعادة الهيكلة الأمنية وحساسية هذا الأمر، فإنّ المهمة قد تطول الى ما لا نهاية. وللبدء بشكل مجد وفعال بكبح إنتشار القاعدة في لبنان اليوم، فإنّ على الحكومة اللبنانية إستخدام، وبفعالية، المساعدات العسكرية التي تتلقاها من الولايات المتّحدة والمجتمع الدولي لتكملة موزانة دائرة الإستخبارات العسكرية اللبنانية. وبالرغم من إعتماداتها المالية المحدودة، طاقمها الصغير، وتجهيزاتها التقنية القديمة، فإنّ دائرة الإستخبارات العسكرية هي المؤسسة الأكثر خبرة، فعالية وقدرة على مكافحة الإرهاب في البلاد. فكونها مدربة من قِبَل المخابرات العسكرية السورية منذ العام 1976، كانت دائرة الإستخبارات العسكرية قادرة على إحباط عدد من المؤامرات الإرهابية في لبنان على مدى السنوات. وبالإجمال، فإنّ دائرة الإستخبارات العسكرية الواقعة تحت سلطة وزير الدفاع، المُراقب بنفسه من قِبَل الهيئة الجديدة لمجلس الوزراء، يجب أن تكون في مقدمة أية حملة محلية لمكافحة الإرهاب، مؤقتاً على الأقل.

الإستنتاجات

إنّ تردد قيادة القاعدة حتى اليوم بخصوص الإستفادة من لبنان كمسرح لعمليات كبرى ضد الغرب وحلفائه العرب وعدم وحدة الحركة الجهادية السلفية في لبنان، يدعم الإستنتاج القائل بأنّ الجهادية السلفية في لبنان ستستمر بعرض نفسها كمشكلة قابلة للإحتواء. وهذا

الأمر، على كل حال، يمكن أن يتغير في حال تلقى إما بن لادن أو الظواهري (والأهم بن لادن) رسالة بحيث يبدأ، *وبشكل صريح*، تأييد الحركة الجهادية السلفية في لبنان والدعوة لدعمها في حربها ضد "الكفار". إنّ تركيز قيادة القاعدة سيظل على العراق وفلسطين في المستقبل المنظور، وسيستمر لبنان بكونه أرض مرحلية لكلا المسرحين.

إنّ الإستنتاج السابق، على كل حال، يعرض الى أنّ التهديد الذي تشكله المجموعات المتأثرة بالقاعدة، ومركزها لبنان، هي تهديدات متدنية أو غير موجودة؛ إنها تهديدات حقيقية. فالنخب الحاكمة اللبنانية تميل، لأسباب سياسية، للتعامل دون إكتراث مع تهديد الراديكالية السنية، والتخفيف منه غالباً، أو بإلقاء اللوم، بما يتعلق بتأثيراتها المسلحة، على سوريا بالخالص. إلا أن الفئات اللبنانية الحاكمة تفوت على نفسها ، عن طريق دفن رؤوسها في الرمال، فرصة هامة بإحتواء تهديد كهذا في مرحلة مبكرة نسبياً من تطوره. فليس هناك من شك بأن الجهادية السلفية في لبنان التي تسببت بها، جزئياً، الظروف المعيشية الصعبة للغاية والمغذاة ببيئة إقليمية عنيفة، تنمو تدريجياً، لكنها تنمو بالتأكيد.

إنّ تخفيض مستوى تهديد الجهادية السلفية سيتطلب خليطاً متوازناً من الإجراءات الناعمة والقاسية. وتتضمن الإجراءات القاسية إجراءات أمنية فعلية كما تتطلب العمل على مكافحة الإرهاب من قِبَل الجيش اللبناني والمؤسسات الأمنية، بهدف حرمان القاعدة من الحصول على ملاذات آمنة لها عبر البلاد. أما التكتيكات الناعمة، فتتضمن ديبلوماسية خلاقة، لصالح لبنان وحلفائه الدوليين، بإشراك سوريا ، البلد الذي يمتلك معلومات إستخبارية هامة حول عدد كبير من الجماعات المسلحة الإسلامية السنية في لبنان والمنطقة (رغم أنّ ذلك لا يعني الكل بأي حال من الأحوال).

إنّ التخلص من تهديد الجهادية السلفية يبدأ بمجهود طويل الأمد من قِبَل الدولة اللبنانية لمعالجة بعض أسبابها، المنعكسة بالظلم الإجتماعي، الإقتصادي والسياسي. وإذا لم يتعامل المسؤولون اللبنانيون بسرعة وجدية مع مسألة إنتشار الجهادية السلفية في بلادهم، فإنّ القضية لا تعدو كونها مسألة وقت قبل أن تتكاتف هذه الحركة العنيفة، وتجد قادة جدد لها وتتوصل الى النضوج التنظيمي، وهي مرحلة سيكون من الصعوبة بمكان إحتوائها والتخلص منها. وأثناء كتابة هذه المقالة، يبدو منطقياً التكهن بأنّ معركة الجيش اللبناني مع الكيانات المتأثرة بالقاعدة قد بدأت لتوها.